الحكمة بين المتنبي وشوقي

دلالة على الذات وتعبير عن النفس

الدكتورة

فوزية عباس خالد

مقدمة

ظهرت الحكمة في العصور الأدبية المختلفة من الجاهلية حتى العصر الحديث ، وتطورت إلى أن أصبحت منذ العصر العباسي فناً مستقلاً قائماً بذاته ، بعد أن كانت نتفا أو أبياتاً في قصائد ، واختلطت بالزهد ، وتأثرت بالثقافات والمعارف المختلفة وبخاصة الفلسفة عند كثير من شعراء هذا العصر ، فدلت على عقلية أصحابها ، وعلى كثرة تجاربهم ، فصورت حياتهم في شتى مناحيها ، وعبرت عن ذاتهم وما يقع لغيرهم .

ولما كان العرب أصحاب تجارب ، فإنهم لم يتركوا شيئاً يجول في النفس أو يقع تحت الحس إلا نظموه ، فكان الشعر ديوان علومهم وحكمهم ، وسجل وقائع وسيرهم ، وشاهد صوابهم وخطئهم ، ومادة حوارهم وسمرهم ، ولما كان الشعراء من أرقاهم عقلاً ، وأدقهم شعوراً ، فقد سبقوا إلى كثير من حقائق الحياة فصاغوها شعراً ، وشعروا بما لم يشعر به الناس أو شعروا ولم يستطيعوا التعبير عنه ، فعبر الشعراء عن شعورهم ، وتغنوا بما في نفوسهم .

وفن الحكمة له جذوره التاريخية ، إذ وجد منذ نشأ الشعر ، حينما كان مقطوعـات قبل أن تستوي القصيدة المكتملة الناضجة ، حيث كانت قبائل العرب تهتم بالحكمة ، فهي بمثابة الدواء للداء ، تعالج مشكلات الفرد والمجتمع ، فكان لكل قبيلة حكيم تلجأ إليه في الشدائد ، وتأخذ من أقواله ما يعينها على مصائب الدهر ونوازل الأيام ، ولهذه المكانة العالية كان الحكيم يحرص على مكانته وعلى أن تتعلق به قبيلته ، فكان يعنى كل

العناية بصياغة حكمته ، ويديرها في رأسه حتى تستوي على الصورة التي يرضاها ، ويقبلها الناس منه ، فيشهدون له بالبراعة والإتقان وحسن العمل .

والحكمة مما يستوحيها الناس في حل كثير من المشكلات ، ومن ثم يقبلون عليها إقبالاً شديداً ، لأنها تتعلق بلب حياتهم ، فهي ثمرة العقل الإنسان ، والإحساس الفكري بالحياة ، كما أنها ثمرة الحنكة ونتيجة الخبرة وخلاصة التجربة ، فليس بغريب أن يكون كلها هذا الصدى والدوران ، بحيث تجرى على الألسنة وتتداول في كل العصور .

والحكمة وليدة طول الدراسة وبعد الثقافة ، وعمق النظرة ، وحسن الفهم ، وسعة الإحاطة والشمول والعلم بالأمور ، حينئذ يكون لصاحبها من الخبرة بأمور الحياة والناس الكثير ، أهلته لأن يكون عارفاً بأحوالهم ، خبيراً ببواطنهم ، ومن سماتها أن تكون موجزة العبارة ، غنية المعنى ، سهلة الحفظ ، مترابطة الألفاظ ، توحي الكلمة فيها بما بعدها في تناغم موسيقى ، وتجاوب صوتي ، وهي من جوامع الكلم ، وصياغتها على هذا الشكل من الأمور التي تستوجب المهارة لكي تكون الحكمة مختارة ، ويقع عليها الاستحسان ، وتنال الرضا والقبول .

والمعروف عند شعر الحكمة استقلال أبياته ، فكل بيت يمثل في ذاته درساً من دروس الحياة ، ولذا يشيع التمثيل به دون ارتباطه بالأبيات الأخرى ، ودراسة الحكمة تحتاج إلى جهد كبير من الدارس ، لأنه يواجه صعوبات متعددة عند

دراسته لهذا الفن ، فنادراً ما تفرد قصائد بعينها للحكمة ، لأنها غالباً ما تختلط معظم فنون الشعر العربي .

ولعل ما دفعني إلى اختيار هذا الموضوع ، بروز الحكمة بشكل واضح في شعر المتنبي وشوقي ، حيث تمثل اتجاهاً خاصاً في شعرهما ، ومن ثم كانت الموازنة بين شاعرين مختلفين في الزمان والمكان ، جمعت بينهما سمة التواصل ، وتلاقي الآراء ، واتفاق الأفكار.

واللّه من وراء القصد

تمهيد

نشأت الحكمة مع نشأة الشعر العربي ومولده ، ولو أننا قلبنا صفحات تراثنا العربي ، وفتشنا في بواكيرنا الشعرية ، وبحثنا عن أوائل ما نظمه شعراؤنا ، لوجدنا أن من أقدم من روي لهم من أفانيين هذا اللون الشعري ، مقطوعة منسوبة لمضاض بن الحارث الجرهمي ، الذي زوج ابنته اسماعيل بن إبراهيم يقول فيها [1] :

يا أيها الحي سيروا إن قصدكم ... أن تصبحوا ذات يوم لا تسيرونا

إنا كما أنتم كنا فغيرنا ... دهر بصرف كما صرفاً تصيرنا

أزجو المطى وأرخوا من أزمتها ... قبل الممات وقضوا ما تقضونا

قد مال دهر علينا ثم أهلكنا ... بالبغي فيه فقد صرنا أفانينا

كنا زماناً ملوك الناس قبلكم ... نأوى بلاداً حراماً كان مسكونا

فالشاعر يتحدث عن صروف الدهر ونوائبه ، وتقبله على من يعيشون فيه وتغيره ، فهو لا يدوم على حالة واحدة ، ولا يستقر على وضع واحد ، فشتان ما بين حالتيه إذا أقبل وإذا أدبر ، فقد كانت الجماعة تعيش مؤتلفة الأهواء ، متقاربة المزاج والطباع ، مجتمعة الكلمة ، حصناً وسداً منيعاً في وجه

---

[1] الأغاني للأصفهاني ـ تحقيق عبدالسلام هارون ـ ط دار الكتب المصرية – ج ١٥ ١٣٧٩هـ/١٩٧٧م – ص ١٩

أعدائهم ، حتى وقعت الواقعة بينهم ، فتفرق ما اتحد ، واختلف ما اتفق .

ولو حاولنا البحث والتنقيب وسرنا في هذا الدرب ، وأمسكنا بطرف هذا اللون من الشعر ، نجد من أقدم المقطوعات التي رواها الأدباء مقطوعة منسوبة لجذيمة بن صبح ابن نهد الملقب بالدويد ، عمر طويلاً ، يقول [1] :

اليوم يبنى لدويد بيتـــه لو كان للدهر بلي أبليتـه

أو كان قرنى واحداً كفيته يا رب نهب صـالح حويته

ورب غيل خشن لويته

فالشاعر يرى أن مصير الإنسان في النهاية الموت ، وها هو يقترب من أجله ، فشرعوا في بناء قبره ، فأين ذهب ماله وقوته ؟ وأين ذهبت شجاعته ؟ أين مغانمه من معاركه ؟ أين شبابه وعنفوان قوته ؟ أين فتكه باللذات وجريه وراء الشهوات ؟ أين تجاوزه الحراس إلى الكريمة العفيفة ؟ أين تقلبه على فؤاد الغانية الحديثة العهد بالزواج والتي هي عن التطرف إلى غير زوجها أبعد وأعف ؟

ثم التمني المستحيل بتغلبه على الدهر وصرعه ، ولكن أنى له ذلك ؟

---

[1] الشعر والشعراء لابن قتيبة – تحقيق أحمد محمد شاكر – ط دار المعارف – ط ٣ الجزء الأول – ١٩٧٧م – ص ١٠

وقال الأصمعي : أحسن ما قيل في الغيرة قول مسكين الدارمي ، وهو ربيعة بن عامر بن أنيف ينتهي نسبه إلى مالك بن زيد مناه من تميم ، شاعر شريف من سادات قومه :

ألا أيها الغائر المستشيط ... علام تغار إذا لم تغـــــر

فما خير عرس إذا خفتـــها ... وما خير بيت إذا لم يـــزر

فإني سأخلي لها بيتهـــا ... فتحفظ لي نفسها أو تـــذر

إذا الله لم يعطه ودهـــا ... فلن يعطى الود ســـوط حمر

ومن ذا يراعي له عرســـه ... إذا ضمه والمطي السفـــــر[1]

فالشاعر أقام أبياته على الحجة والدليل ، وخاطب عقل الفائر قبل أن يخاطب روحه ومشاعره ، ليبرهن على أن الغيرة الزائدة مرض يصيب أصحابه باختلال العقل وضعف التفكير ، ثم يأتي الاستفهام الإنكاري ((علام تغار إذا لم تغر)) فلماذا يغار الإنسان إذا لم يكن هناك دافع لذلك ؟

والشاعر يبدو أنه قد أصابه ما أصاب غيره ، أو أنه صار خبيراً بأحوالهم ، عالماً بأسرارهم لأنه تغلغل إلى أعماق شخصية الغائر ، بذكره أهم الأسباب التي تترتب عليها ، فمع الغيرة يكون الخوف ، فالغائر يخشى على زوجته أن تتحدث مع الآخرين ، أو تخرج بمفردها ، أو تجلس في البيت بمفردها ، ولكن إذا كتب الله عليه السفر إلى مكان آخر ؟

---

[1] أمالي المرتضى – تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – ط دار إحياء الكتب العربية – الجزء الأول – ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م ص ٧٤٥ وبعدها

وإذا أنعمنا النظر في شعر الحكمة عند الشعراء منذ القديم ، نجد أن الشاعر منذ البداية كان يحرص على أن يكون الشكل والفكرة ممتزجين ولا يمكن الفصل بينهما ، لأن العلاقة بينهما وطيدة وعميقة ، فلا شكل بغير فكرة ، ولا فكرة بغير شكل يحتويها ويعبر عنها .

ولننظر إلى امرئ القيس وقد اختار شكلاً فنياً وهو الحكمة ، ولنتعرف منه على نوع الفكرة التي احتواها الشكل ، يقول [1]:

ألا إن لا تكن إبل فمعزى كأن قرون جلبتها العصى

وجادلها الربيع بواقصات فأرام وجاد لها الولـــى

إذا مشت حواليها أرنـــت كأن الحي صبحهم نعـــى

فتوسع أهلها أقطا وسمنـا وحسبك من غنى شبع وري

فالشاعر يقول : إن الإنسان لا يدري مـن أين يأتيه الخير ، فإذا كان يسعى إلى الثراء ولم يوفق – وقد رمز للثراء بالإبل لأنها أفضل أموالهم – فعليه أن ينهض ليبدأ من جديد ، حتى لو كانت البداية قليلة – وقد رمز لها المعزى فهي أقل أموالهم وأدناها – فهذه المعزى قد يجود لها الربيع بمطر تتغذى على نتاجه ، فإذا مسحت ضروع هذه المعزى ((أرنت)) من شدة ارتطام اللبن بالوعاء عند نزوله كناية عن كثرته وتدفقه ،

[1] ديوان امرئ القيس – تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – ط دار المعارف – ط ٣ ١٣٧٧هـ/١٩٥٨ ص ١٣٧-١٣٨

فيصدر صوتاً يشبه صوت القوم الذين أتاهم ((نعى)) فهم يبكون ويصرخون.

هذه هي الفكرة الظاهرة التي تستشف عند النظرة الأولى للأبيات ، ولكن الشكل الذي اختاره وعاءً لفكرته هو الحكمة ، وهي تحتاج في الغالب إلى فكرة عميقة متعددة التفسيرات ، ليأخذ كل قارئ ما يتواءم ونفسه ، وما يتناسب مع الحالة التي عليها ، فتحدث في نفسه تغيراً أو تبديلاً ، وتصحح مفاهيم ومعتقدات

فهل يمكن أن يقال إن امرأ القيس أراد فكرة مختلفة عن طريق البيت الأول حين أعدم الإبل وأوجد المعزى ؟ هل يقصد من وراء ذلك أن الإنسان إذا سعى في الحياة فلم يطلب منها إلا العيش دون المجد وعلو الذكر فالقليل يكفيه ويحقق أمانيه ؟ ألا يمكن أن تكون الفكرة هي الحث على السعي نحو المجد وعلو الذكر والتهكم بالقاعدين غير الطامحين ؟ هل يمكن أن تكون الفكرة هي بيان غدر الزمان لأن الشاعر أراد العلا وسعى إليه فإذا بالطعنة الغادرة تأتيه من زمانه الذي يعيش ؟

إن عمق الفكرة جاء ملمحاً للشكل الذي جادت به قريحة الشاعر ، فصاغه شعراً معبراً على حسب قراءة كل متذوق لهذا الشعر ورؤيته له.

الفصل الأول : بين الشاعرين : الرؤى والتوجيهات.

المبحث الأول : المتنبي بين النشأة والاتجاه.

للمتنبي مكانة مميزة بين شعراء الأدب العربي ، فهو صاحب منزلة عالية ، ودرجة سامية ، ولشعره أهميته في عمارة الشعر العربي ، فهو صاحب عبقرية شعرية ضخمة ، توافر لها كل عناصر هذه العبقرية ، موهبة عالية ، ونغم موسيقى ساحر ، وخيال خلاق ، وعاطفة جياشة ، وقاموس شعري خصب ، وحاسة تمزج بين الحاضر والماضي ، ولذلك فشأن شعره شأن ضوء القمر الذي ينير المسافات الغامضة في ظلمات الليل ، وشأن الأنهار الباردة التي تنحدر وتغسل الغبار والجدب والعقم ، وشأن فجر الندى يطلع على الدنيا فيصحيها من سباتها.

وقد تحدث كثير من الأدباء والنقاد عن المتنبي ، فتناولوا سيرته ونشأته ، وأبرزوا المؤثرات في اتجاهه ، ومنهم من عرض لنتاجه بالدراسة والتحليل ، فأبرز مواضع تفوقه ، وأشار إلى مواطن نبوغه ، ونظراً لما تقتضيه الأمانة العلمية أشار البعض إلى مواطن القصور والضعف ووضع يدي القارئ على الهنات والسقطات دون أن يتجاوز المناقشة الجادة ، ومع ذلك فهناك من تعرض لهذا النتاج وانهال عليه نقداً وتجريحاً بروح تخالف الموضوعية وتجافي الحق وتبعد عن الصواب.

وإذا نظرنا في حياة الشاعر لنرى ما فيها من مؤثرات عملت على التأثير فيه وتوجيهه ، نجد منها :

١- الموهبة

والقارئ لشعر المتنبي يدهشه هذه الموهبة ، التي حلقت به في سماء الشعر العربي ، ورفعته إلى ذروة سنام الشعر في العصر العباسي ، وتفوق بها على كبار شعراء البلاط والسلطان في عصر الدول والإمارات ، وبها أصبح موضع الذكر ، تلهج بشعره الألسنة والمنتديات بأخباره ، ألم يكن مثار البحث والدروس من نقاد عصره ؟

إن موهبة المتنبي قد أفرزت شاعراً فحلاً من شعراء العربية ، شغل الدنيا بشعره وحارت العقول في أفانين قصائده ، وشغلت البحوث التي دارت حول شعره وشاعريته جانباً كبيراً في المكتبة العربية ، فهو بحر زاخر يحتاج المرء أن يجمع كل أدوات البحث والدروس والنقد قبل أن ينزل إلى أعماقه ويغوص بين لؤلؤه وأصدافه ، يفتش عن دره ومكنونه ، ويميز بين أحجاره الكريمة .

٢- ثقافته

نشأ المتنبي في الكوفة ، وتعلم في كتّابها ، ولزم الوراقين يقرأ كتبهم ، فقد كانت الكوفة مؤئلاً للعلم والثقافة ، وقبلة بقصدها الكثير من الأدباء والعلماء ، فتعلم فيها الأدب واللغة ، وصحب الأعراب فسمع لغتهم ، وأفاد من الرحلة إلى البادية ، ونظر في أيام الناس ، وتعاطى قول الشعر حتى بلغ فيه الغاية التي فاق فيها أهل عصره ، وعلا شعراء وقته .

وقد ساعد تلك البيئة الثقافية انتقاله إلى بيئة ثقافية أخرى ، حين ارتحل به أبوه إلى بلاد الشام ، فشب مولعاً بفنون اللغة ، حريصاً على طلبها ، ساعياً إلى أهلها في البادية والحضر ، حتى نال منها أوفر نصيب ، فكان من المكثرين في نقل اللغة والمطلعين على غريبها وحوشيها .

كان المتنبي واسع الثقافة بكل ما عرف لعصره من فنون ومعارف وثقافات ، وقد اتجه بشعره إلى أن يستوعب أساليب هذه المعارف ، وأن يمثل عناصرها المتنوعة حتى ينال إعجاب العلماء والمثقفين ، الذين أخذ عنهم ونهل من ثقافتهم وعلمهم ، ومنهج الزجاج والسراج والأخفش ، حتى أوفى الغاية ، وأصبح أعجوبة عصره وزمانه .

وإذا عرجنا على المصادر القديمة نستفي منها مثالاً ونموذجاً على مدى ما وصل إليه من ثقافة ، فإن الشواهد تطل علينا من أي كتاب فتحنا ، فقد ((قيل إن الشيخ أبا علي الفارسي قال له يوماً : كم لنا من الجموع على وزن فعلى ، فقال المتنبي في الحال : حجلى وظربى ، قال الشيخ أبو علي : فطالعت كتب اللغة ثلاث ليال على أن أجد لهذين الجمعين ثالثاً فلم أجد))[1]

[1] وفيات الأعيان لابن خلكان – ط مكتبة عيسى الحلبي – ص ٢٥٥ - ٢٥٦

٣- الشخصيات

أ – سيف الدولة :

نشطت الحركة الثقافية في بلاط سيف الدولة نشاطاً كبيراً لم تشهده أي عاصمة عربية أخرى في عصر الدويلات ، حيث كان الأمير أديباً إلى جانب كونه فارساً ومجاهداً كبيراً ، لذلك رعى الأدباء وحاول أن يحشد منهم في بلاطه أكبر وأضخم عدد ممكن ينافس به بغداد التي بدأت تفقر من رجال الأدب والفكر ، فاجتمع في بلاطه من الشعراء فحولهم ، كالمتنبي وأبي فراس ، فوجد المتنبي في هذا البلاط الجو الرفيع الذي كانت تتوق إليه نفسه ، ووجد المناخ العربي الصحيح ، والرجل الذي حلم به في صباه .

((ويلمع أمام عينه أمير عربي شيعي ، كان يحارب الروم حرباً عنيفة ، باعثاً في حاضرته حلب نهضة أدبية وعلمية رائعة ، هو سيف الدولة ، فتطمع نفسه إلى الانتظام في سلك شعرائه ، ويلقاه فيجد عنده كل ما كان يأمله ، ورأى فيه المتنبي رمز دولة العرب المفقودة ، وعاش نحو تسع سنوات في هذا الحلم يحظى بمنزلة رفيعة من سيف الدولة ، وينعم بلقاء من جذبهم إليه من الفلاسفة والعلماء)) [١] .

إن الدارس لتلك الفترة من حياة المتنبي وشعره ، يلمح أنه كان شاعراً وزعيماً سياسياً ((والمتنبي في نظري ليس شاعراً يمدح الولاة والأمراء ، ولكنه زعيم سياسي يشتغل

[١] انظر الفن ومذاهبه في الشعر العربي – د. شوقي ضيف - ط دار المعارف - ط ١٢ ص ٣٠٩

بالعمل العربي العام ، ووسيلته في هذا شعره ، ولقد كان سيف الدولة ينظر إليه هذه النظرة باعتباره رجلاً سياسياً كبيراً في بلاطه))[1] .

ب – كافور الأخشيدي:

وقد أتاح له تنقله بين سائر الأقطار العربية أن يطلع على همومها ومتاعبها وما يجري فيها من صراعات تؤدي إلى ضعفها وتفككها ، ولما حل الشاعر بمصر احتل مكانة بين زملائه الشعراء المقيمين والنازحين إلى وادي النيل ، فرحبت به الأندية والمنتديات ، وأهمها منتدى الحاكم كافور ، فجلس مع الشعراء في مقام الذكر .

والحــق أن هذا الاحتفال والاتصال بكبار شعراء عصره ، مما يعين على التجويد ، إذ الاحتفال يدفع إلى الإتقان ، ليكون موضع التبريز ، وهو ما يساعد على تجاوز الهنات والسقطات ، ولا شك أن هذا الاتصال قوي في نفسه نزعة المجاراة في النظم على نفس النهج ، بل ومحاولة إثبات التفوق والبروز عن غيره ، وهذا ما كان له ، فأعطى بذلك شعره طابع الأصالة في أسلوبه والتجديد في أفكاره .

قدم المتنبي إلى كافور يجذبه الطمع في أن ينال منه ولاية ، ومما لا يستدعي العجب من شخصية المتنبي أنه كان يمدح سيف الدولة وهو جالس ، وقد اشترط عليه هذا ، وأما عند كافور فكان المتنبي ((يقف بين يديه وفي رجليه خفان ، وفي

[1] في عالم المتنبي – د. عبدالعزيز دسوقي – ط دار الشروق – ط ٣ ص ٧٠

وسطه سيف ومنطقة ، وكان لا يجلس في مجلس كافور .. وسأل أبو الطيب كافوراً أن يوليه صيداء من بلاد الشام أو غيرها من بلاد الصعيد ، فقال له كافور : أنت في حال من الفقر وسوء الحال وعدم المعين ، سمت نفسك إلى النبوة ، فإن أصبت ولاية وصار لك أتباع فمن يطيقك))[1]

ولكن أتجرى تلك الأحداث ولا تؤثر في نفس الشاعر ؟ ألا تزيد في رؤيته وخبرته ؟ ألا تجرى شعراً ينساب على لسانه حاملاً خلاصة خبرته وعصارة تجربته ؟ ألا تكون حكمته ثمرة لتقلب زمانه ودورانه ؟

لقد كان لصفاته وأخلاقه أثر في شعره ونتاجه ، فقد كان مرهف الحس سريع التأثر ، وأدى به ذلك لأن يتحول من المديح إلى الهجاء لما يأس من تحقيق غايته ، والحق أن شعره قد حدث فيه نوع من الاضطراب النفسي وعدم الثبات ، إلا أنه زاد خبراته وتأملاته العملية وفلسفته ، فتجسمت خوالجه في فؤاده ، فتناول قيثاره شعره ، وأوشك أن يزيد في ألحانها أنغاماً وفي أوتارها أوتاراً ، مما جعله يصوغ لنا حكماً كانت أكثر فلسفة وعمقاً مما كانت عليه من قبل ، تحمل بين جوانبها خبرات واسعة ومعاني متنوعة .

لقد قدم المتنبي نتاجه لجمهوره بما يحمل من رؤى وتوجهات ، موقناً بأن من إنسانية الشاعر أن يكون في قومه نغماً شادياً تستريح إليه نفوسهم ، وتستجيب له عواطفهم ،

---

[1] انظر الصبح المنبئ عن حيثية المتنبي – تحقيق مصطفى السقا ومحمد شتا وعبده زيادة – ط دار المعارف ط ٣ ص ١١٢

وتتلاقى عنده آلامهم ، وأن من أمانة الكلمة أن تكون لوجه الحق ولخير المجتمع ، ومن ثم كان عطاؤه في هذا الميدان كبيراً .

المبحث الثاني :

شوقي بين النشأة والاتجاه

يعد شوقي أحد الذين دعموا الموقف الثقافي في مطلع هذا القرن ، وهو بحكم العطاء والتاريخ يعتبر من جيل الرواد الذين عبدوا الطريق للقصيدة العربية المعاصرة ، فقد نشأ شوقي مع هذا الجيل الجديد الذي تحمل هذه المهمة الثقيلة على عاتقه ، مهمة تعبيد طريق الشعر ، ووضع أسسه المخالفة للعصر السابق عليه ، ليرتفع فوقها البنيان شاهقاً ، ولذا أحدث بشعره دوياً ظل صداه يتردد بتعاقب الأجيال ومرور السنين .

وإذا كان زمن شوقي يختلف عن المتنبي ، حيث نجد في العصر الحديث كثيراً من الأدباء يسجلون لحياتهم ، ويتركون ترجمات ذاتية توضح النشأة والثقافة والاتجاه ، فإن أحمد شوقي لم يترك لنا سيرة ذاتية نرجع إليها عند الترجمة له مثل الكثير من أحزابه ومعاصريه ، ولم يترك كذلك مذكرات يروي فيها ذكرياته وأخبار حياته ، ولا ترك صوراً شخصية تعكس بوضوح ظروفه النفسية والبيئة الاجتماعية ، فلم يكن هذا يشغله ، ولم يكن معنياً بإيجاد مثل هذا اللون ، فهو لم يكن من كتاب أدب الاعتراف ، ممن يتيحون للقارئ أن يقف على ملابسات حياتهم ، وظروفهم الخاصة ، ليتعرف على المؤثرات والدوافع في توجيهاتهم وأعمالهم .

وربما يرجع السبب في ذلك إلى أنه كان يخشى من نوازعه وأهوائه في التأثير على قدرته وهو يزن الأشياء ويقوم

الأمور ((وقد يكون الإنسان أميناً مخلصاً صريح الرأي صادق الحديث ، ولكن تنقصه مع ذلك القدرة على التحليل والتعليل والتحري والاستقصاء ، وقد يكون عارفاً بنفسه ، ولكن تنقصه مع ذلك الأمانة الموضوعية والنزاهة العلمية))[1] .

ومن هنا رأيت أن أذكر بعض تلك المؤثرات التي أثرت في اتجاهه مرتبطة بأحداث حياته ، وإذا نظرنا إلى تلك المؤثرات فسنجدها على أنواع :

الأول : اتجاهات عملت على تكوين قاعدته والأرضية التي انطلق منها للإبداع وقول الشعر ومنها :

أن مخزون شوقي لـم يتشكل من مفردات الموهبة وحدها ، بل إن إدراك شوقي لموهبته قد دفعه إلى استيعاب كل ما تطوله يده من تراثنا العربي بالإضافة إلى كثير من دواوين الشعر العربي ، كديوان أبي العلاء المعري والمتنبي وأبي تمام والبحتري وغيرهم ، وقد طعم هذه القراءة التراثية بالتوجه إلى الوافد الغربي ، فأحاط بالمذاهب الأوربية بالإضافة إلى قراءته لعيون الإبداع في العالم .

وليس الكتاب وحده هو الذي غذى موهبة شوقي الشعرية ونما ، فهناك من الشخصيات من كان لها تأثير في نفسه ، فسار على نهجها وأخذ من ينابيعها ، فكل من يقرأ شوقي يحس الصلة القوية بينه وبين البارودي ، ثم بينه وبين شعراء العرب ، فقد استطاع أن يتفاعل مع الشعراء السابقين وعلى رأسهم المتنبي والبحتري ، وأن يكون لنفسه موسيقى ساحرة تعتمد على

[1] لماذا يشقى الإنسان ؟ علي أدهم – ط مكتبة نهضة مصر بالفجالة – ص ٢٦٠

صياغة عربية أصيلة ، ومن هنا استحوذ على قلوب العرب جميعاً ، لأنه ضرب على أوتار قلوبهم ، فأحسن الضرب إلى أبعد حد .

وكان أول ما أعــده لذلك كتاب الوسيلة الأدبية للمرصفي ، وما قرأ فيه من أشعار القدماء وشعر البارودي ، وتحول من هذا الكتاب إلى دواوين الأسلاف ينهل منها ويعمل ، وأوغل في ذلك حتى حاكى الممتازين في غير قصيدة ، ليدل على مبلغ إتقانه للأسلوب العربي الرصين .

ومن أساتذته الذين تتلمذ عليهم ((الشيخ محمد البسيوني البيباني أستاذه في اللغة العربية ، وكان شاعراً فصيحاً ، تبهره شاعريته ، ويجلس منه مجلس التلميذ من أستاذه)) [1].

ففتح له الشيخ أفاقاً رحيبة ، وأخذ بيده إلى عالم الشعر ، وفتح له بابه على مصراعيه ، فكان البوابة التي أطل منها ، ولم يلبث أن ولجها شاعراً كبيراً يفوق المعاصرين ويحملهم بوجوده .

<u>الثاني : اتجاهات جعلت تعبيره ملائماً للعصر ، فهو في حاجة إلى لغة تخاطب أبناء العصر حتى يستطيع أن يوحي بما يريد ، فيلقى الإجابة والقبول .</u>

حيث أدرك شوقي أن اقتصاره على قراءة الشعر العربي لن يكفيه زاداً شعرياً معاصراً ، لأن هذا الشعر يصور حياة تختلف في تفاصيلها ومظهرها عن حياتنا اليوم ، وإن لم تختلف

[1] شوقي شاعر العصر الحديث – د.شوقي ضيف – ط دار المعارف – ط ١٣ – ١٩٨٨م – ص ١٣

في روحها وجوهرها ، ثم إنه مكتوب بلغة تختلف إلى حد ما عن لغتنا المعاصرة ، وإن كانت هي عربيّتنا نفسها ، وذلك التطور طبعي في اللغات الحية جميعاً ، ومن ثم فإن هذا التراث العظيم الذي تنحدر إلينا من الآباء والأجداد لا يكفي وحده لإلهام شاعر عربي يستجيب لحياة هذا العصر ، وإنما لابد له أن يقرأ تراث الغرب الشعري ، وتراث الأمم المجاورة لنا ، لتتفتح له عوالم جديدة ، ويستطيع القدرة على رؤية حديثة للحياة والشعر.

وعلى الرغم من عدم إنكارنا جريان التيار الأوربي في شعره ، إلا أنه كان يجرى في تقطع ، أو يجرى أحياناً جرياناً غير محسوس ، ولكنه يجرى على كل حال ، فيتجه إلى الشعر القصصي والشعر التاريخي ، بل إن التيار الأوربي نفسه كان يتضاءل أمام التيار العربي ، فهو إن بدا في حقبة اختفى في أخرى تحت سيول منهمرة من الموسيقى العربية التي كان يحسنها شوقي إلى أبعد حدود الإحسان ، ومعنى ذلك أن التيار العربي كان أعنف من التيار الأوربي الجديد ، ولذلك بدا شوقي محافظاً في أغلب حياته ، وبدا بداخله من الغرب كأنه جزر منفصلة في النهر العربي الكبير .

وما كان له من تأثير في نفس شوقي ، وجعله يمعن في أحداث التاريخ ويتحقق من قضاياه وأحداثه ، والنتائج التي ترتب عليها بدقة ثورة ١٩١٩م التي بدأت بالدورة الثانية من حياته ، فلم يعد شاعر القصر ، بل شاعر الشعب المصري وترجمانه ، وقد أجنحته فتخطى سماء وطنه ، محلقاً في سموات البلاد العربية ، إذ تجمعت في صدره مشاعر الوطنية وأحاسيسها القومية ، وصوب أبياته بل سهامه المصيبة إلى

نحور أعدائها المستعمرين ، ومن ثم لم يثر شعب عربي على مستعمر إلا وقف معه يجسد ألمه ويبعث الضياء في نفسه .

الثالث : العوامل التي وجهته إلى هذا الفن

نفيه عن وطنه وما انتابه من إحساس ، فقد كان قبل النفي لا يعرف المحن والألم ، فقد أحس الحياة من طبيعتها اللذة والألم ، والنعيم والحرمان ، واستيقظت روح الشاعر بعد سبات عميق ، وأخذت تنظر فيما حولها من عبر التاريخ الأندلسي وشموس الإمارات الغاربة هناك ، وامتد العصر في أعماق التاريخ العربي ، فكتب ديوان العرب وعظماء الإسلام ، أسفاً على زوال حضارتهم وبسط نفوذهم وسيطرتهم ، ويزيد هذا في خبرة الشاعر ودرايته ، فتكون الحكمة دليل الخبرة ، وبعد النظر وعمق التجربة .

((وإنك لتكاد تشعر حين مراجعتك أجزاء ديوانه كأنك أمام رجلين مختلفين جد الاختلاف لا صلة بين أحدهما والآخر ، إلا أن كليهما شاعر مطبوع ، يصل من الشعر إلى عليا سماواته ، وأن كليهما مصري يبلغ حبه مصر حدّ التقديس والعبادة ، أما فيما سوى هذا فأحد الرجلين غير الرجل الآخر ، أحدهما مؤمن عامر النفس بالإيمان ، مسلم يقدس إخوة المسلمين ويجعل من دولة الخلافة قدساً تفيض عليه شئونه وحوادثه ، ووحي الشعر وإلهامه ، حكيم يرى الحكمة ملاك الحياة وقوامها)) [1].

[1] الشوقيات – ط دار الكتب العلمية – بيروت – الجزء الأول – ص ٦

نخلص من هذا إلى أن الازدواج الظاهر في شعر شوقي بين دين ودنيا قد لازمه منذ أول شبابه حتى آخر عمره عمره إلا قليلاً ، فأنت تقرأ له [1]:

حف كأسها الحبب فهي فضة ذهـــــب

أو يطالعنا من شعره قوله [2] :

رمضان ولي هاتها يا ساقي مشتاقة تسعى إلى مشتاق

فأنت ترى شاعراً مغرماً بالحياة ومتاعها وأنعمها ، ثم لا تلبث أن ترى صورة مخالفة ترود في خشوع [3] :

ولد الهدى فالكائنات ضياء وفم الزمان تبسم وثناء

كل هذه الحياة التي سيماها التردد ، التردد بين الدين واللذة ، التردد بين القديم والجديد في الأدب وغيره قد أحدثها الاختلاط بعادات أخرى وثقافات مختلفة بين العقلية الأصلية والعقلية الجديدة ، ويزيد في هذا عند الشعراء رقة الشعور ودقة الإحساس وسرعة التأثر ، يخلو الشاعر إلى نفسه ، فيمعن ويتدبر ، ويزيد في سعة إدراكه وازدياد خبرته ، فتكون حكمته نتاج ثروة من التجارب والممارسة ودوران الأيام وتقلب الأزمان .

---

[1] السابق – ط دار الكتب العلمية – بيروت – الجزء الثاني – ص ٩
[22] السابق – ط دار الكتب العلمية – بيروت – الجزء الثاني - ص ٧٥
[33] الشوقيات – ط دار الكتب العلمية – بيروت – الجزء الأول – ص ٣٢

الفصل الثاني :

مصادر الحكمة في شعر الشاعرين

المبحث الأول : مصادر الحكمة في شعر المتنبي .

وإذا نظرنا في حكم المتنبي وجدناه شديد التغلغل في طوايا النفس البشرية ، شديد التفهم لأحوال الزمان والمكان ، فهو يعالج العادة وأثرها في الحياة ، والنقص وأثره في أحكام تمكن الأديب من أن يتعمق الأمور ويحسن الإحاطة بها ، ولذلك كان لكبار الشعراء في الأدب العربي ثقافة فلسفية مكنتهم من تناول مشكلات الحياة في فهم وعمق .

وإذا تتبعنا مصادر الحكمة في شعر المتنبي نجد منها :

١ـ تجربته الشخصية

فنفس المتنبي تمثلين اتجاهين مختلفين ، اتجاه يظهر منه فرح النفس وصبورها وما يعتريها من سعادة وسرور ، واتجاه آخر يظهر حسرتها وما يدور فيها من آلام وما يجول من أحزان ، وأما مظاهر البهجة فيمكنك أن تحسسها حين يشعر الشاعر بشيء من الرضا عندما ينال من التكريم ما يستحقه ، والتكريم قد يكون معنوياً حين يُرفع إلى الدرجة العالية ، وقد يكون مادياً في عطاء موفور من المال يغدق به عليه ، وقد عاش الشاعر كلا الحالتين في حضرة سيف الدولة في حلب .

وأما سعادته وهو يرى شعره يتردد على كل الأسنة ، فيعبر عنها قوله [1] :

وما الدهر إلا من رواة قصائـــــد إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشـدا

ودع كل صوت غير صوتي فإننـي أنـا الصائح المحكي والآخـر الصدى

فهذا نموذج معبر عن سعادته بما وصل إليه شعره ، حيث ضمن له البقاء والخلود ، وترديد الاسم في مقام الذكر مع النابهين من شعراء العربية .

وأما من ناحية المال الذي كان يسبب له سعادة معادلة لسعادته السابقة ، حيث كان يحرص على الاستكثار منه ، فيقول [2] :

وقيدت نـفسي في ذراك محبـة ومن وجد الإنسان قيدا تـقيدا

فالممدوح هو الإحسان نفسه ، فقد حل محله وجمع صفاته ، ومن ثم حق للشاعر أن يتقيد به قيدين ، قيد لمحبته ، وقيد لإحسانه وكرمه الذي غمره به .

وأما عن المظهر الآخر الذي يعلوه فيه الألم والحزن ، فله فيه اتجاهان :

أحدهما : متعلق برؤيته لنفسه وما عليه واقعة الأليم ، والآخر يصور فيه علاقته بالناس وما ساءه منهم ، فقد كان المتنبي يعتقد

---

[1] ديوان المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري – ط دار الكتب العلمية – المجلد الاول – ١٩٧٧م – ص ٢٩٥-٢٩٦

[2] ديوان المتنبي – المجلد الأول – ص ٢٩٦

أنه سيء الطالع ، وأن زمنه اختصه من بين سائر معاصريه بمعاداته وإنزال الملمات به ، يقول[1] :

كيف الرجاء من الخطوب تخلصا من بعدما أنشبت فيّ مخالبا

أظمأتني الدنيا فلما جئتها مستسقيا أمطرت عليّ مصائبا

فالاستفهام الإنكاري حمل معنى نزول الخطوب التي لا يطيقها الشاعر ، فقد تمكنت وأنشبت مخالبها فيه كما ينشب الحيوان الوحشي مخالبه في فريسته فيقيدها لا تتحرك ، ثم لما استقى الدنيا كان مطرها سحائب من المصائب وسيولاً من النوازل .

إن الشاعر لا يفتأ يحدثنا عن تزاحم الأرزاء ، فيقول يخاطب الحمى التي أصابته في مصر[2]:

أبنت الدهر عندي كل بنت فكيف وصلت أنت من الزحام؟

جرحت مجرحاً لم يبق فيه مكان للسيوف ولا السهام

وأما عن اتجاهه الثاني الذي يتجه فيه إلى تصوير علاقته بالناس ، فمنها تصويره لعلاقته بغيره من الشعراء ، فكان المتنبي لا يقبل في دولة الشعر مزاحماً ، ولا أن يساويه مضارعاً ، ومن ثم فهو يحقر من شأنهم ، ويصورهم تصويراً يسقط ثقتهم بمواهبهم ، يقول [3]:

ومن يك مرّ مريض يجد مراً به الماء الزلالا

---

[1] السابق – المجلد الأول – ص ١٣٤-١٣٥

[2] السابق – المجلد الرابع – ص ١٤٩

[33] السابق – المجلد الثالث – ص ٢٤١

فهم مرضى الحس والذوق ، فكيف يُلام المتنبي أو يعاب بكلامهم

ومن النماذج التي تدل على خبرته بنفوس البشر ، وعلمه بخافيها قوله[1] :

أصادق نفس المرء من قبل جسمه وأعرفها في فعله والتكلم

وأحلم عن خلي وأعلم أنه متى أخبره حلما على الجهل يندم

وهي حكمته تدل على خبرة ، حيث يراعى المتنبي الفروق الفردية بين الناس ، ويراعى سماتهم وصفاتهم ، فيعامل كلا بما يستوجب ويستحق .

٢ـ التراث الأدبي

وقد استمد المتنبي كثيراً من حكمه من التراث الأدبي شعره ونثره ، فقد تأثر بالشعراء السابقين تأثراً يشهد له بالبراعة في الاستقصاء والدقة في الاستقراء .

وإذا فتحنا ديوان المتنبي ، ونظرنا في دواوين غيره من الشعراء ، نرى مدى هذا التأثر وحسن التعبير عنه ، فسنجد النماذج الكثيرة التي تدل على ذلك ، فترى مثلاً قول المتنبي[2] :

وهكذا كنت في أهلي وفي وطني إن النفس غريب حيثما كانا

---

[1] ديوان المتنبي – المجلد الرابع – ص ١٣٧

[2] الوساطة بين المتنبي وخصومه للجرجاني – تحقيق هاشم الشاذلي – ط دار إحياء الكتب العربية – ص ٢٠١ وما بعدها

والذي يدل فيه على أن مكانة المرء ومنزلته وعلو درجته لا تكون إلا في وطنه ، فيه يُعترف بفضله وجميل عمله ، وأما في خارجه فحتى لو كان ((نفيساً) كريماً تظل غربته حائلاً بينه وبين ما يستحقه .

((أليس هذا المعنى مأخوذاً من قول أبي تمام :

غربته العلا على كثرة الأهـ ـل فأضحى في الأقربين جنينا

فليطل عمره فلو مات في مر ومقيماً بها لمات غريبـــــا))[1]

وانظر إلى قول المتنبي الذي يتحدث فيه عن أقسام الناس ، ويخص منهم هنا أهل العزيمة بقوله [2]

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم

فبمقدار عزيمة الإنسان تأتي أعماله ، وتكون المكارم دليلاً على قدر صاحبها ، ومدى كرمه وسخائه ، والمتنبي في معناه السابق قد تأثر بقول عبدالله بن طاهر :

إن الفتوح على قدر الملوك وهما تـ الولاة وأقدام المقادير

فحسن التقسيم في البيت يبين أسباب الفتوح وتحقيق النصر على الأعداء ، فهو يأتي بعزيمة الملوك التي تساعدها وتقويها عزيمة الولاة ، ثم العامل الحاسم في تحقيق النصر وهو القدر ، الذي قد يكون سنداً وعوناً ، فيتحقق لك أملك وما تصبو إليه نفسك ، وقد يكون مناوئاً فيذهب عملك أدراج الرياح .

---

[1]

[2] ديوان المتنبي – المجلد الثالث – ص ٣٩٩

وينتقل المتنبي إلى الحديث عن العقل ، وهل يتمتع الشباب برجاحة العقل وحسن التفكير في الأمور ، ووزنها كالكهول أم لا ؟ يقول [1]:

فما الحداثة من حلم بمانعة قد يوجد الحلم في الشبان والشيب

فتاتي الإجابة بأن صغر سن المرء لا يمنع من تمتعه بحسن الفطنة والخبرة بالأمور ، فتأتي أحكامه مشابهة لأحكام الكبار ممن يقيسون كل الأمور بمقياس العقل .

وقد سبق ابن المعتز إلى هذا المعنى ، يقول:

وما ينقص من شباب الرجال يزد في نهاها وألبابها

فنقصان الشباب معناه الإسراع نحو مرحلة الشيب ، وفيها يزداد عقله رجاجة واتساعاً ، فيأخذون في مراجعة أحوالهم ، والتفكر في الحياة التي يحيون ، وتلخيص تجاربهم في حكم ينتفع بها من بعدهم .

وأخيراً يعرض المتنبي لمفارقة ساخرة ، حين يحدثك عن الإنسان العاقل ، وما يجره عليه عقله من الشقاء والنصب ، وهذا الإنسان الجاهل الذي يؤدي به فقر عقله إلى أن يعيش سعيداً ، يقول [2] :

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

---

[1] ديوان المتنبي – المجلد الأول – ص ١٨٠
[2] السابق – المجلد الرابع – ص ١٢٥

فكيف يكون العقل سبباً في شقاء صاحبه ؟ هل يرى ما عليه الواقع المتردي ويسعى إلى تغييره ولا يستطيع ؟ هل يفكر فيما يصاحب تغييرات الناس من تجاوزات لا يقرها ؟ أيكون عدم التفكير فيما حول المرء سبباً في نعيمه إذ يريح عقله ولا يبالي لأمور تقع حوله ؟

إن المعنى السابق للمتنبي مأخوذ من قول البحتري :

أرى الحلم بؤساً في المعيشة للفتى ولا عيش إلا ما حباك به الجهل

وقد عدّ بعض النقاد هذا الأخذ من قبيل السرقات ، ولكن عند النظر إلى تلك الدراسات التي قام بها هؤلاء النقاد نجد بعضها قام على التعليل ، وبعضها الآخر ندّ عن هذا وأصدر حكمه دون أن يوقفنا على الأسس أو الدعائم التي أوقف عليها نقده ، ففي بعضها يرفع المتنبي إلى أقصى ذروة إلى أعلى طبقة ، وفي الأخرى يهبط به إلى درجة تخرجه من زمرة الشعراء وجمهرتهم ، وكان الأولى بهؤلاء النقاد الارتفاع بالفن فوق الغايات ، وإخضاعه لواقع الحياة ، فينبغي على الناقد أن يتميز بالموضوعية ، وأن يدل على مواطن العيب والضعف ، وان يشير إلى مواطن الهنات والسقطات وحسبه هذا . فتلك غاية المهمة الموكولة إليه والمنوطة به ، فمتى عدل عن تلك الرؤية ، فقد أخل بسمة من سمات الناقد .

٣ـ الفلسفة :

يعد عصر المتنبي من أزهى عصور الفلسفة ، حيث نقل العرب كثيراً من فلسفة اليونان ، ليتمكنوا بها من الرد على المعاندين والمتشككين ، وقد صادفت الثقافة الإغريقية هوى في

نفوس العرب في عصر المتنبي ، حيث اهتم الفلاسفة العرب بشرحها والتعقيب عليها وموازنتها بما يقابلها عند المسلمين من دراسات ومذاهب .

وقد انتقل هذا الزاد المشروح والمعقب عليه إلى المتنبي عن طريق الفيلسوف العربي الفارابي ، الذي كان يلتقي به في مجلس سيف الدولة ، وما إفادة المتنبي بهذا الزاد الفلسفي إلا إحياء للتراث الإنساني ، ودليلاً على تواصل الحضارات ، وانتفاع بعضها ببعض فترتبط حلقات الفكر البشري ، وتندفع إلى طريق التقدم والرقي .

وإذا فتشنا في ديوان المتنبي عن أمثلة ونماذج لهذا الانتفاع بهذه الفلسفات المختلفة ، نجد الشواهد كثيرة دالة على فهم المتنبي لها ، وإقباله عليها ، وجعلها زاداً له يستمد منه ويأخذ.

ومن ذلك قول المتنبي :

من الحلم أن تستعمل الجهل دونه إذا اتسعت في الحلم طرق المظالم

فقد جعله الحاتمي مأخوذاً من قول أرسطو : ثلاثة إن لم تظلمهم ظلموك : ولدك وعبدك وزوجك .

وقول المتنبي :

كأنك بالفقر تبغي الغنى وبالموت في الحرب تبغي الخلودا

مأخوذ كما قال الحاتمي من قول أرسطو : موت النفس حياة ، وعدمها وجودها وقول المتنبي:

كثير حياة المرء مثل قليلها يزول وباقي عيشه مثل ذاهبه

متأثر فيه بقول أرسطاطاليس : أواخر حركات الفلك كأوائلها ، وإنشاء العالم كتلاشيه بالحقيقة لا بالحس .

وقول المتنبي :

وشبه الشيء منجذب إليه وأشبهنا بدنيانا الطغام

متأثر كما قال الحاتمي بقول أرسطو : الأشكال لاحقة بأشكالها كما أن الأضداء مباينة لأضداها[1] .

ولكن هل نقول : إن المتنبي بهذا يعد فيلسوفاً ؟

ونقول : إننا لا ننكر جريان هذا التيار الفلسفي في نفس المتنبي ، ولكنه إذا امتد أحياناً فإنه يختفي بين تيارات شعرية ، فكأن الفلسفة جزر صغيرة منفصلة في بحر شعر المتنبي الكبير ، فللشعر طريق ، وللفلسفة طريق له أصحابه الذين يسيرون أغواره ، ويعرفون تقسيماته ، أما المتنبي فشاعر لا نجرده من ثقافته الفلسفية التي تأثر بها في أفكاره ومعانيه ونشرها في شعره ، ووضع بها أبياته ، فله فضل تهجين الشعر العربي بالأفكار الفلسفية والآراء والمذاهب الأجنبية .

٤ـ القرآن والحديث :

يعد القرآن هو المنهل العذب الذي استقى منه الشعراء ألفاظهم ومعانيهم ، وتأثروا بصوره وتعبيراته ، ومن هؤلاء

---

[1] انظر المتنبي بين ناقديه في القديم والحديث – د. محمد عبدالرحمن شعيب – ط دار المعارف – ط٢ – ١٩٦٤ – ص ٢٣٦ وما بعدها.

المتنبي ، حيث اصطبغت حكمته بثقافة إسلامية مستمدة من القرآن ، فنراه يعرج على القرآن في كثير من حكمه ، يستلهم معناها ، ويأخذ خلاصتها ، ليصوغها حكمة لجمهوره ، راجياً من ورائها أن تصل لقلوبهم وتتفاعل مع عقولهم ، فيتأثروا بها وتكون نبراساً لهم يهديهم ، إذا عنتّ لهم نفس المواقف والأحداث ، وأبرز ما يمثل ذلك قوله[1]:

وكم من عائب قولاً صحيحاً وآفته من الفهم السقيـــم

ولكن تؤخذ الآذان منـــه على قدر القريحة والعلوم

فالشاعر يرى أن الإنسان قد يعيب قولاً حسناً يحمل معاني نافعة له ولغيره ، ولكن لجهله لا يدرك ما تحمله ، فلا يكترث بها ، ولا يأخذ بما فيه من نفع ، وهذا المعنى الذي أراده مأخوذ من قوله تعالى ((وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفكٌ قديم))[2]

وإذا نظرنا إلى مظاهر التأثر في شعر المتنبي التي حذا فيها أسلوب القرآن ، نجد منها[3] :

وأحلم عن خلي وأعلم أنـه متى أجزه حلماً على الجهل يندم

فعلاقة التضاد بين الحلم والجهل تظهر ما عليه الشاعر من استواء في النفس ، فإذا كان من غيره الجهل والطيش ، فإنه لا يلقى الإساءة بالإساءة ، وإنما بالحلم والغفران ، وهذا المعنى

---

[1] ديوان المتنبي – الجزء الرابع – ص ١٢٢
[2] سورة الأحقاف – الأية ١١
[3] ديوان المتنبي – المجلد الرابع – ص ١٣٧

مأخوذ من قوله تعالى : ((ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم))[1]

ومما تأثر به من معاني القرآن وألفاظه قوله[2] :

إذا الجود لم يرزق خلاصاً من الأذى فلا الحمد مكسوباً ولا المال باقياً

أليست هذه دعوى من المتنبي لممدوحيه أن يعطوه دون أن يمنوا عليه ؟ أليس هذا تمني من طرف خفي بأن تؤول إليه أموال ممدوحيه فيكون هو صاحب البذل والعطاء ؟ لقد تأثر المتنبي في حكمته بقوله تعالى ((ولا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى))[3]

وكما تأثر المتنبي في حكمه بالقرآن تأثر أيضاً بالحديث الشريف ، فقد أخذ من ألفاظه وتأثر بسمته ومعانيه ، وإذا عرجنا على قصائده رأينا فيها هذا اللون من التأثر يقول[4] :

إن بعضاً من القريض هذاء ليس شيئاً وبعض أحكام

فهذا البيت ربما يظهر من ورائه علاقة المتنبي بغيره من الشعراء ، فهو إذا عاب هنا شعرهم وانتقص من قدره ، فهو يرفع شعره ويسمو به من جانب آخر ، فإذا كان شعرهم لا نفع من ورائه ، فإن شعر المتنبي حكماً يُفيد منها الآخرون ، فتحرك قلوبهم وتمتع عقولهم ، وحجة المتنبي عل تقسيم الشعر إلى

---

[1] سورة فصلت – الآية ٣٤
[2] ديون المتنبي – المجلد الرابع – ص ٢٨٨
[3] سورة البقرة – الآية ٢٦٤
[4] ديوان المتنبي – الجزء الرابع – ص ١٠٣

هذين النوعين ، حديث الرسول صلى الله عليه وسلم ((إن من الشعر لحكما))[1].

وإذا نظرنا إلى حال المتنبي مع حاسديه من الناس الذين يتابعون أخباره ويسألون عن أنبائه ، نرى إفادته من حديث للرسول يجنبه الوقوع تحت سهام حقدهم أو أنياب حسدهم ، فهو يقول مبيناً موقفهم منه وحيلته معهم[2] :

يستخبرون فلا أعطيهم خبري وما يطيش لهم سهم من الظن

فالتضاد بين ((يستخبرون) ((ولا أعطيهم خبري)) يظهر اختلاف كل فريق في مسعاه ، فبينما هم يسعون جاهدين للتجسس عليه بكل وسيلة ، فإنه يقابل هذا بما يتضمن معنى الوقوف في وجه خططهم ، خوفاً على نفسه من كيدهم وحسدهم

إن المتنبي لم يكن ليقابل هؤلاء بما يستوجب أن يقابلهم لولا أن قرأ حديث الرسول ((استعينوا على أموركم بالكتمان))[3]

ولما كان هذا شأن الحاسدين الناقمين على المتنبي ، فقد ضاقت نفسه من هذا التناحر ، فدعاهم في أسلوب حكيم أن يدعوا ما هم عليه ، وينقلبوا إلى أضداد صفاتهم ، لينعموا بعيشهم ولتهنأ نفوسهم ، يقول[4] :

ومراد النفوس أصغر من أن نتعادى فيه وأن نتفانى

---

[1] صحيح البخاري – ١١١/٤ ج(٦/٤٥)
[2] ديوان المتنبي – الجزء الرابع – ص ١١٥
[3] حلية الأولياء – أبو نعيم الأصفهاني – ٢١٥/٥
[4] ديوان المتنبي – الجزء الرابع- ص٢٢٤

فما الذي يتعاركون للفوز به ؟ لم هذه العداوة ؟ إن ما يتنافسون عليه أهون مما يقومون به من أجل الحصول عليه .

إن ما يحدث بين الناس لم يكن يحدث لو ساروا على هدي نبيهم ((لا تدابروا ولا تباغضوا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله إخوانا))[1]

ولما يئس المتنبي أن ينال غايته من كافور بأن يجعله حاكماً على ولاية أو إقليم ، انقلب إلى الهجاء ((وكان أبو الطيب في اعتداده بنفسه وطموحه إلى السؤدد ، وقصور عصبته وثروته عن بلوغ ما أمل ، حاقداً على الناس يحقرهم ويذمهم ويطغن عليهم ويتحدث بقتلهم))[2]

يقول[3] :

ومثلك يؤتى من بلاد بعيدة ليضحك رباتِ الحداد البواكيا

فقوله ((ومثلك يؤتى)) فيه إشعار بالخضوع والذل في عملية الاقتياد ، وإذا نظرنا إلى الهدف الذي من أجله جُلب له ، نجد غاية الفحش في الهجاء ، فالرسول ((لا يحل لامرأة أن تحد على ميت فوق ثلاث ليال إلا على زوج أربعة أشهر وعشرا))[4] فالمحتدة في حالة من الحزن والهم ، فما الذي يبدل سمتها ويخرجها عن طورها ، إنه جلب كافور بصورته وهيئته ،

---

[1] صحيح البخاري – ٣٦٠/٣ - ح (٥/٤٣)
[2] ذكرى أبي الطيب المتنبي بعد ألف عام – عبدالوهاب عزام- مطبعة الجزيرة بغداد – ١٩٣٦/١٣٥٥م ص ٢٨٣
[3] ديوان المتنبي – المجلد الرابع – ص ٣٠٢
[4] صحيح البخاري – ٣٤١/١ ج(١٢٨١-١٢٨٢)

ليغير نفسها ، ويذهب بالآمها وحزنها ، حين تنظر إلى ما عليه من صورة خلقية تبعث السرور والفرح في نفوس الآخرين .

٥ـ مبادئ الإسلام وأحكامه :

وإذا أنعمت النظر في حكم المتنبي وجدته قد استمد كثيراً منها من مبادئ الدين وقواعده ، فقد أشار الإسلام إلى أهمية المحافظة على الجار وصيانة حقوقه ، فقال تعالى ((والجار ذي القربى والجار الجنب))[١] ووصى به الرسول خيراً فقال ((وما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه))[٢] فلما رأى المتنبي ما عليه جيرانه من لؤم وخسه ، هتف مذكراً بما أوجب الإسلام للجار قائلاً[٣] :

أما في هذه الدنيا مكان يسر بأهله الجار المقيم

فالاستفهام الإنكاري يبين فساد الأخلاق حين ابتعدت عن التزام قيم الإسلام ، وهذا المتنبي أحد المؤرقين المعذبين نتيجة هذا الابتعاد ، لعد صيانة حقوقه ، والمحافظة على ما أوجب له الإسلام .

ويأمل المتنبي بهذا العتاب الرقيق لسيف الدولة أن يحكم عليه بالعدل لأنه من مبادئ الإسلام ، يقول[٤]

يا أعدل الناس إلا في معاملتي فيك الخصام وأنت الخصم والحكم

---

[١] سورة النساء – آية ٣٦
[٢] صحيح البخاري – ٨٣،٨٢/٤ ج(١٤ . ٦- ٦٠١٥)
[٣] ديوان المتنبي – الجزء الرابع- ص ١٥٢
[٤] السابق – الجزء الثالث – ص ٣٨٧

فسيف الدولة عادل إلا في معاملة المتنبي ، وهو صاحب قرار الفصل في تلك القضية المعروفة ، وهي حكمة يمكن لكل إنسان أن يتمثلها عندما يشعر بالظلم ، فتكون عتاباً رقيقاً ، يصل به إلى حقه دون أذى.

المبحث الثاني : مصادر الحكمة في شعر شوقي :

يعد المتنبي وشوقي في طليعة شعراء الحكمة والأمثال في الأدب العربي ، إذ لا تكاد ترى قصيدة لأحدهما إلا ضمت بين أبياتها حكمة ومثلاً ، فقد استقر رأي كل من كتب عنهما على اتفاقهما في مختلف الميادين والاتجاهات .

وشوقي في مقدمة شعراء الحكمة في العصر الحديث ((ومن الظواهر الواضحة في شعر شوقي التماس الشاعر للحكمة ، وقد أثرت أن أقف على تلك الظاهرة البارزة في شعره في جميع القصائد والمقطوعات ، وهي ليست ملحوظة في شعر الكهولة وحده ، إنما ترجع إلى ميل في نفس الشاعر منذ صباه ، ومن الجميل أن يكون الشاعر حكيماً ، ولكن الأجمل أن ترد الحكمة عفواً بلا تكلف أو افتعال))[1]

يقول شوقي منبهاً لما يحدث في المعارك[2] :

من يصطبر للصدمة الأولى يسد لا يصلم الفل ولو كانوا الأسد

فالرجل قد اختبر حقيقة المعركة من خلال مشاهداته وتأمله في أحداث التاريخ ، فمنها رأى أهمية الثبات والصدق عند لقاء العدو ، فإن أصابه الهلع والجزع خسر المعركة حتى لو أراد العودة من جديد بمن بقي من رجاله ، ولو كانوا أسوداً في القوة والشجاعة .

ويقول فيما يراه المرء مخالفاً لواقعه[1] :

---

[1] أحمد شوقي – د. زكي مبارك – ط الهيئة العامة للكتاب - ١٩٧٧ م – ص ٦٦

[2] ديوان العرب وعظماء الإسلام – أحمد شوقي – ط المكتبة التجارية بمصر -١٩٧٠م ص ٦٦

قد يقع الثعلب في الحباله وتتقي الفراشة الذباله

فالمشاهد والمرئي من واقع الموازنة بين الثعلب والفراشة بخلاف ما قرره الشاعر ، فإذا رأيت العكس فاعلم أنك مهما أخذت الحيطة فقد تقع فيما تثق في قدرتك على تخطيه ، وقد تنجو مما أنت معتاد على الوقوع فيه .

ومما سبق يتضح أن شوقي قد استقى تلك الحكم من تجاربه أكثر مما استقى من مطالعاته ، فقد عاش زمناً عيشة لم يعتد عليها ، لا يعرفها إلا من ابتلى بمثلها أو بما يقاربها ، وما ظن القارئ بمن يعاشر الملوك ثم يذوق ما في كؤوس السياسة من صاب وعلقم ، ولذا نرى حكمه صادقة غير متكلفة .

وإذا ذهبنا نبحث عن مصادر الحكمة عند شوقي نجد أنها قد تنوعت وتعددت ، فكانت معيناً له على أداء حكمته ، وكان لها أثر كبير في وفرة ما أنتج من حكم ، ومن هذه المصادر:

١ـ الذات وما وقع لها من تجارب وخبرات

تعد التجارب الذاتية أساس الحكمة ونبعاً من ينابيعها الأصيلة ، ولا يتوقف التعبير عن الذات عند حدود الشخص المعبر عن نفسه ، وإنما يتجاوز ما أنتج وعبر عنه حدود الذات ليعبر عن الإنسانية ، فيكون صوته صوتها ، وتكون تجربته تجربتها .

والمعبر عن ذاته لا يفرز ما يفرزه إلا بعد تأمل دقيق واستيعاب شامل ، ثم يحول ما تأمل لمادة معبرة عن المعاناة

---

[١] السابق – ص ٨٤

والألم ، ويتوقف نجاح الأديب في الصياغة النهائية لتجربته على إبراز معاناته الذاتية في صورة موضوعية ، يفيد منها من أراد ، فتسكب تلك الحكمة الأمل في نفسه ، وتمهد له الطريق ، وتنير جانبيه ، ليخرج من محنته سالماً .

وقد ألمت بشوقي مواقف كثيرة ، أثرت فيه وأمدته بزاد وفير ، أعانه على صياغة حكمه ، ومن ذلك ، موت والدته وهو في منفاه ، فقال من قصيدة يرثيها[1] :

ولم أر كالأحداث سهماً إذا جـــرت ولا كالليالي راميـاً يبـعد المرمى

ولم أر كلما كالمقادير نافـــــذا ولا كلقاء الموت من بينـها حتما

فقد اجتمع على الشاعر حزنان : ألم الغربة ، وألم فقد والدته ، فكانت المصيبة كبيرة ، وقد تجاوز محنته ، واستدعى أدواته الشعرية ، وصاغ تجربته حكمة معبرة عما اعتمل في نفسه ، فهو ((لم ير كالأحداث سهماً) فالأحداث سهم ، والسهم عند العرب يرمز به إلى اللون الأزرق ، الذي يأتي من نار حامية ، فكأن السهم قد رمز لتلك النار الزرقاء ، التي ألهبت قلبه ، وأشعلت النار في جسده ، ولكن ما حيلة الشاعر مع فعل الأحداث والليالي ؟ أيقاوم ؟ ألا يكترث أو يبالي ؟ إنه يقر بحقيقة يدعو الآخرين إلى الامتثال لها . ((ولم أر حكماً كالمقادير نافذاً)) فالموت حتم ، وهي دعوة إلى الصبر والتسلي والرضا بالقضاء .

[1] الشوقيات – الجزء الثالث – ص ١١٤ - ١١٥

وقد اعترف الشاعر تعبيره عن تجربته بحقيقة الموت ، حيث يقول[1]:

وما العيش إلا الجسم في ظل روحه ولا الموت إلا الروح فارقق الجسد

فالتضاد بين (العيش والموت) و(المفارقة والبقاء) التي عبر عنها بظل الملابسة ، قد عبر عن نفس الشاعر المتضاربة بين حقيقة الموت والحياة ، ومدى تأثيرهما في ذاته ، فالموت نهاية كل مخلوق ، لأن الأحداث جارية والليالي فاعله .

ومن التجارب الذاتية التي وقعت للشاعر وأحسن التعبير عنها وصاغها حكمة سائرة ، منفاه وقصيدته التي عبرت عن ذلك (غربة وحنين) فقد كان الشاعر لا يعرف شيئاً عن المحن ، ولم يجرب الألم ، ولكنه في الغربة أحس الحزن والألم ، وتعرف على أحوال الناس المتباينة فقال[2] :

اختلاف الليل والنهار ينسى اذكرا لي الصبا وأيام أنسى

فالتضاد بين ((الليل والنهار)) يدل على تباين الصورة واختلافها في نظر الشاعر ، فبعد أن عانى الشاعر الآلام وتحمل الأحزان ، وجد تأثيرها يزول شيئاً فشيئاً بمرور الأيام ، ويؤكد هذا التحول بالاستعانة بالأسلوب الإنشائي ((اذكرا لي الصبا)) فالأمر غرضه الرجاء والحث على تذكيره بحالته الأولى المباينة لما هو عليه ، فيكون التباين عبرة وعظة تسلي النفس وتسعد الروح ، وهو ما يبعث الأمل في نفسه ، أن يتغير حزنها وألمها إلى سعادة وفرح.

---

[1] السابق – الجزء الثالث – ص ١١٥

[2] الشوقيات – الجزء الثاني- ص ٤٥

ويقول شوقي معبراً عن صنوف الناس وطبائعهم ، وما في الحياة من عظات[1] :

رب بان لهادم وجمـــوع لمشتت ومحس لمغـــــــــس

حسبهم هذه الطلول عظات من جديد على الدهور ودروس

فالمتضادات في البيت الأول لا ينبغي أن تزيدك دهشة وتساؤلاً ، وإنما يجب أن تزيد في عقلك ، وتوسع من إدراكك ، لتعرف ماهية الحياة وما حقيقتها ، فهي دائماً متقلبة متغيرة لا تثبت على حالة واحدة ، وقد عمد إلى أدلة العقل ليزول عن الناس ما يجدون من هشة حين قال ((حسبهم هذه الطلول عظات)) فقد كانت الأطلال من قبل كياناً قائماً ينعم به أصحابه ويسعدون بسكناه . ثم لما دارت الأيام دورتها ، ورحل أصحابها البيت ، أصبح الكيان أثراً بعد عين ، قد جرى عليه ما يجرى على البشر من تحولات .

٢ـ ما وقع للشاعر من أحداث عاصرها زادت في خبرته فأبرزها حكمة :

لاشك أن هناك عوامل عديدة تؤثر في نفس الأديب ، ويظهر أثرها في أدبه ، ومن أبرز هذه العوامل وأهمها البيئة التي يعيش فيها ، وما يقع فيها من أحداث تنطبع في ذاكرته ، ويتأثر بها في عمله وإبداعه ، ومن تلك الأحداث التي عاصرها وأثرت في نفسه ، فخرجت حكمة معبرة عنها :

---

[1] السابق – الجزء الثاني – ص ٥٠ ـ ٥١

*** مقاومة الاحتلال ونضاله :

فقد مرت مصر خلال المرحلة الزمنية التي عاشها الشاعر بأحداث جسام ومواقف كان لها أثرها في قريحته الشعرية ، فراح يسجلها على حسب ما تركت في نفسه ، فكان شعره صدى لهذه الأحداث ، وتصويراً صادقاً للعصر والبيئة .

فشوقي في ظل هذه الظروف السياسية التي عمتها الفتن واضطربت بسببها الحياة ، يسوق لنا شعره الذي يصف هذه الأحداث في صورة حكة بالغة توضح الموقف وتعرضه ، فيلقى في دخيلة أبناء وطنه ما أراد من استغفار الهمم الخامدة وبعث العزائم الرابضة ، يقول منددا بالمحتل[1] :

أحرام على بلابلة الدو م دلالة للطير من كل جنس

كل دار أحق بالأهل إلا في خبيث من المذاهب رجس

فالاستفهام الإنكاري في البيت الأول يوضح ما عليه المحتل من صفات لا يقرها ، وينكر ما عليه من سياسة ومبادئ ، كما أن التضاد بين (الحلال والحرام) قد كشف عن نفسية مضطربة غير مستقرة ، تدفع المرء أن يسأل : أحرام على أبناء الوطن أن يتمتعوا بوطنهم ؟ لماذا يحرم عليهم المحتل ما يحل لنفسه ولأضرابه (من كل حنس) ؟

وتراه يصب جام غضبه على ((رياض باشا)) في قصيدة وصفه فيها بالجمود والحمق وسوء الفهم ، وذلك حيث

---

[1] الشوقيات – الجزء الثاني – ص ٤٥

خطب فكان ما قاله خطبا على مصر ، لما فيه من دعوة للخنوع والخضوع ، يقول[1] :

إذا الأحلام في قوم تولت أتى الكبراء أفعال الطغام

فيا تلك الليالي لا تعودي ويا زمن النفاق بالإســـلام

فالشاعر بحديثه عن تولي العقل ، وما يترتب عليه من إتيان الصغائر ، كأنما يشير من طرف خفي إلى ذهاب عقل رياض ، ومن ثم ترتب على ذلك ، تلك الجريمة في حق نفسه ووطنه ، وهي حكمة تشير إلى أن العقل أساسي تقدير الأمور وميزان المواقف .

ومن الأحداث التي عاصرها الشاعر وأثرت في تجربته الدعوة إلى الوحدة الإسلامية ، فطالما حز في نفسه تفرق المسلمين واختلاف كلمتهم ، على أن اليأس لم يغلب على الشاعر يوماً ، فقد ظل الرجاء الحلو في نهضة المسلمين واتحادهم يعاوده ويراوحه ، فيرى كل أرض مسلمة أرضه ، ويبرأ من النزعات الإقليمية ، التي تفتت الصف المسلم ، وهذا التنصل من تلك النزعات هو الذي يجعل من شوقي رائد من رواد الدعوة إلى الوحدة الإسلامية .

وقد تمثلت مظاهر الخلافة الإسلامية في تلك الفترة في الخلافة العثمانية ، فكان الجميع يشيد بالسلطان ، لا لذاته وإنما لكونه يمثل رمز وحدة المسلمين ، فكان شوقي يمجدهم إذا

[1] السابق – الجزء الأول – ص ١٦٣

انتصروا، وكثيراً ما حض الآخرين على مؤازرتهم في محنتهم ، يقول مشيداً بالسلطان عبدالحميد[1]:

سهرت ونام المسلمون بغبطة : وما يزعج النوام والساهر الأب فعلاقة التضاد بين ((سهرت ونام)) تدل على حقيقة الراعي مع رعيته ، فمنه السهر والقيام على شئونهم ، ((وما يزعج النوام والساهر الأب)) حكمة في صورة أسلوب إنشائي بالاستفهام عرضه التقرير ، فإذا كان الساهر الأب فكيف بحالة الأبناء النائمين ؟ أينامون وهم مؤرقون ؟ ألا ينامون ملء جفونهم ؟

٣ـ التراث الأدبي

أ – الشعر : استمد شوقي كثيراً من حكمه من التراث الأدبي شعراً ونثراً ، فتأثر بغيره من الشعراء والأدباء في صياغة حكمته ، وخاصة المتنبي ، فقد عكف شوقي ((على النماذج العباسية الحية عند أبي نواس والبحتري وأبي تمام والمتنبي والشريف الرضي وأبي فراس وأمثالهم ، وكان إعجابه شديداً بالبحتري والمتنبي خاصة [2]))

غير أن هذا التأثر لم يجعله أسيراً يسلك نفس الدرب والطريق دون أن تكون له شخصيته ، أو يكون له صوته المعبر عن نفسه ، فسرعان ما اهتدى إلى أسلوبه ، هذا الأسلوب الذي يقوم على احتذاء القوالب العباسية ، ولكن صاحبه لا يجد حرجاً

---

[1] الأدب العربي المطاق في مصر – د.شوقي ضيف – ط دار المعارف – ط ١١ – ص ١١٤

[2]

في أن يعارض أصحاب تلك القوالب ، فتكون له شخصيته ، ويكون له صوته المعبر عن ذاته .

فهذا شوقي يحدثنا عن تفرد أصحاب المواهب ، وتميزهم عن غيرهم في كل العصور ، يقول[1] :

لولا مواهب في بعض الأنام لما تفاوت الناس في الأقدار والقيم

((فلولا)) حرف امتناع لوجود ، إذ لولا الموهبة ما تميز ((البعض)) بالتقليل ، فالموهبة لا تتوافر لجميع الناس ، وهذا يؤدي إلى تفاوت منازلهم ودرجاتهم .

وقد سبق شوقي في هذا المتنبي والبارودي ، فقد قال المتنبي[2] :

لولا المشقة ساد الناس كلهم الجود يفقر والأقدام قتال

وقال البارودي[3] :

ولولا تكاليف السيادة لم ينسحب جبان ولم يمحو الفضيلة ثائر

فإذا كان شوقي قد جعل التميز في المنزلة ، للموهبة التي تدفع صاحبها ، فقد جعلها المتنبي في المشقة والتعب وحفر الأرض ، وجعلها البارودي في تكاليف السيادة وهي الجلاميد التي ينبغي أن يزيحها المرء من طريقه لينال أمنية .

ويحثنا شوقي على السير حسناً ، ليدوم ذكرنا بعد وفاتنا ، فالذكرى العطرة لا تلبث تتردد ، وتتناقل الأجيال سيرة

---

[1] ديوان المتنبي – الجزء الثالث – ص ٣٠٣

[2]

[3] ديوان البارودي – تحقيق علي الجارم ومحمد شفيق معروف – الجزء الثاني – ط دار الكتب المصرية – ١٩٤٢م – ص ٨٢

صاحبها جيلاً بعد جيل ، فكأنه ما زال يحيا معهم يلمسون ذاته بأصابعهم ، ويتحسسون جسده بأيديهم ، يقول شوقي[1] :

فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها فالذكر للإنسان عمر ثاني

((فالذكر للإنسان عمر ثاني)) فهو بهذا يجعل عمره عمرين وحياته حياتين ، فسوف تتناقل الألسنة سيرته ، وتكون أخباره حديث المنتديات والمجالس .

((وقد جعل العقاد هذا المعنى مقتضباً مأخوذاً من بيت المتنبي حيث يقول :

ذكر الفتى عمره الثاني وحاجته ما فاته وفضول العيش أشغال[2]

ويحذرنا شوقي من أصحاب الوجوه المتلونة ، الذين يظهرون خلاف ما يبطنون ، يقول[3] :

فيا رب وجه كصافي النمير ـر تشابه حامله والنـــــمر

فشتان ما بين النمير والنمر ، فإذا كان صفاء هذا الوجه كصفاء ماء النمير ، فإن صاحبه يضمر داخله صفات النمر في الشراسة والحيوانية ، فينبغي ألا نركن إليه أو نطمئن ، وقد تأثر هنا بالشريف الرضي حيث يقول[4] :

لا تجعلن دليل المرء صورته كم مخبر سمج عن منظر حسن

---

[1] الشوقيات – الجزء الثالث – ص ١٢٣
[2] ديوان المتنبي – الجزء الثالث – ص ٣٠٤
[3] الشوقيات – الجزء الأول – ص ١٠٨
[4] ديوان الشريف الرضي – شرح د.يوسف شكري فرحان – الجزء الثاني – ط دار الجيل – بيروت – ١٩٩٥م – ص ٤٧٨

فعلى المرء ألا يقيس الإنسان بصورته ومظهره الخارجي، وعليه أن ينظر في ذاته ، ليعرف أخلاقه .

ومما أخذه الشاعر قوله حكاية عن اليمامة والصياد[1] :

فبرزت من عشها الحمقاء والحمق داء ماله دواء

والقصة على لسان الحيوان عند شوقي تدور حول تصوير المفارقات المستمدة من الحياة ، لاسيما ما يكشف عن نواحي الضعف الإنساني ، كالنفاق ، والشر الذي يغلب الخير ، والغرور الذي يقود إلى الحشرات ، والموهبة التي لا يحسن صاحبها استغلالها ، وعاقبة الغباوة والغرور ، كما يشير فيها إلى خطر الغفلة والغرة في علاقة بني وطنه بالمستعمر الدخيل .

وهو يدعونا ألا نصادق الحمقى ، لأنك مهما حاولت علاج حمقهم فلن تفلح وسوف يذهب ما تقوم به أدراج الرياح .

وقد تمثل شوقي فيه قول الشاعر :

لكل داء دواء يستطب به إلا الحماقة أعيت من يداويها

ويدعو شوقي الإنسان إلى عدم الاكتراث بالحياة في حالتيها ، إذا أقبلت أو أدبـــرت يقــول[2]

لا تحفلي بجفاها أو جنايتها الموت بالزهر مثل الموت بالفحم

---

[1] الشوقيات – الجزء الرابع – ص ١١٩
[2] السابق – الجزء الأول – ص ٥٢

ودليل شوقي على هذا الاستواء أن الموت بالزهر مثل الموت بالفحم ، فالفحم هو جناية الدنيا ، والزهر جناها ، فكثرة الزهر سبب أيضاً في هلاك الإنسان وموته .

وهذا المعنى الذي تمثله شوقي قريب من قول الشاعر ابن السعدي :

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره تعددت الأسباب والموت واحد

ب- النثر : استعان شوقي بالتراث النثري في صياغة حكمته ، سواء كان مثلاً أو وصيته ، أو نصيحة أو غير ذلك ، حتى أصبح لشوقي من الحكم ما يجري مجرى الأمثال ، وإذا كان قد أفاد من النثر الأدبي فهو متأثر به ، فقد أضاف إليه وزاد فيه ونماه فهو مؤثر فيه .

وذلك على نحو ما يقول[1] :

مديحه فيك حب خالص وهوى وصادق الحب يملى صادق الكلم

فإذا كان الحب الذي يكنه المرء لأخيه مستوراً ، لا يستطيع أن يعرف حقيقته والماهية التي هو عليها ، فإن صادق الكلام في التوجيه والنصح دليل على هذا الحب وأثره الذي يخبر عنه وما زال شوقي يستمد من التراث النثري ، فيقول في رثاء يعقوب صروف[2] :

وجشمت ميدان السياسة فارساً وكل جواد في السياسة كابى

---

[1] الشوقيات – الجزء الأول – ص ١٥٦
[2] السابق – الجزء الثالث – ص ٢٦

فلكل جواد كبوة ، قد يستطيع النهوض بعدها ، فيقبل نفسه من عثرته ، ويقوم من رقدته ، وقد لا يستطيع النهوض والعودة ، وقد كبا المرثى كبوة لا يعود بعدها ، فقد ذهب بالموت وانتهت حياته.

ويقول شوقي في أبي الهول مصوراً ضجره وتأففه من طول حياته[1] :

أبا الهول ماذا وراء البقا إذا ما تطاول غير الضجر

عجبت للقمان في حرصه على البد والنسور الأخر

وشكوى لبيد لطول الحياة ولو لم تطل لتشكى القصر

فالتضاد بين ((طول الحياة وقصرها)) يدل على نفسية مضطربة ، متضادة المشاعر متباينة الإحساس ، لا تستقر على وضع واحد ، فهي مقلبة دائماً ، ساخطة على حالها ، لا ترضى طول البقاء على حالة واحدة.

٤ ـ ثقافته الإسلامية

تعد مصادر الثقافة الإسلامية ممثلة في القرآن الكريم والحديث الشريف وغيرها ، من أهم المصادر التي استعان بها شوقي في صياغة حكمته ، فقد انطبقت معاني القرآن في قلب شوقي ، وأثرت فيه تأثيراً قوياً ، ولذلك جاء عمله مستقيماً لا عوج فيه ، وإنك لتلمس هذا حين تقرأ له قوله[2] :

---

[1] الشوقيات – الجزء الثالث – ص ٢٦

[2] السابق – الجزء الأول -

ذكرت باليتم في القرآن تكرمة وقيمة اللؤلؤ المكنون في اليتم

فإذا كان البعض يرى في اليتم نقصاً في حق اليتيم ، إذ لم يأخذ خبرة والديه وتجربتهما ، فيشب على النقص معتمداً على ذاته ، ينظر إليه بعين العطف والشفقة ، فإن الشاعر لا يرى عيباً في مدح القرآن للرسول باليتم ، ويضرب لذلك المثل بالجواهر النادرة المتفردة ، فعلو قيمتها وندرتها يعود إلى تفردها ، وقد استمد شوقي هذا من قوله تعالى :((ألم يجدك يتيماً فأوى))[1]

وفي معرض حديث شوقي عن النفس البشرية ، يتحدث عن أحد نوعيها ، يقول [2] :

هامت على أثر اللذات تطلبها والنفس إن يدعها داعي الصبا تهم

فتلك هي النفس الإمارة بالسوء ، التي ما إن يطلق لها صاحبها العنان حتى ((تهيم)) في كل مجال وفي كل اتجاه ، تبحث عما يحقق لها لذتها ويشبع رغباتها ، وقد حذرنا الله تعالى من تلك النفس لما يترتب على ترك المجال لها من سوء العاقبة ، فيقول ((وقد خاب من دساها))[3]

ويقول شوقي عن البيت الحرام [4] :

وما بنى الحق له الثبوت وما بنى الباطل عنكبوت

---

[1] سورة الضحى – الآية ٦
[2] الشوقيات – الجزء الأول – ص ١٥٢
[3] سورة الشمس – الآية ١٠
[4] ديوان العرب وعظماء الإسلام – ص ٢٠

فهذا المعنى مأخوذ من قوله تعالى : ((وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت)) فهي لا تقوى على ما يلقاها من عوادي الزمن ، ولا تعتمد للمواجهات ، بل هي ضعيفة تزول لأهون الأسباب وأحقرها .

الفصل الثالث :

الدراسة الفنية

المبحث الأول : الأسلوب

لو نظرنا إلى سمات الحكمة من ناحية الأسلوب في شعر الشاعرين ، فسنجد أن أهم ما تحقق لهما في هذا الجانب هو السهولة والرقة والعذوبة ، وهذا جانب التعبير عن العطر الذي يعيش الشاعران ، فهما نبت بيئتهما ، منها يأخذان ، وعليها ينموان .

أنظر إلى رقة أسلوب المتنبي حين يقول متحدثاً عن إفادة المرء من الآخرين ، حتى لو كان مصائبه وعذابه[1] :

بذا قضت الأيام ما بين أهلها مصائب قوم عند قوم فوائد

فالشطر الثاني حكمة جارية مجرى المثل ، والذي جعلها كذلك سهولتها وبساطة تركيبها ، وهي كلمة تحمل معنى السخرية ، إذ المرء لا يفيد من أخيه حين تقبل عليه الدنيا بخيرها فقط ، وإنما من توالي مصائبها ونوازلها .

ويقول متحدثاً عن الصداقة التي تفرض على الإنسان أحياناً على كره منه[2] :

ومن نكد الدنيا على الحران يرى عدواً له ما من صداقته بد

---

[1] ديوان المتنبي – الجزء الأول – ص ٢٨١

[2]

فقوله ((من نكد الدنيا على الحر)) فيه إشعار بشدة الكارثة ، وعظيم الخطب والفادحة ، ولكن على أي صورة يكون نكد الشاعر هنا ؟ إنه صداقة العدو ، فهل يمكن لإنسان أن يصادق عدوه ؟ هل يتخيل في يوم أن يكون له خلا ؟ إنها الدنيا التي فرضت عليه تلك الصداقة ، وهذا أشد إيلاماً في النفس .

وإذا انتقلنا إلى حكم شوقي ، نجد روح السهولة والبساطة تغلب عليها أيضاً ، فلا تعقيد ولا غموض ، أنظر إليه يقول [1] :

وإذا المعلم لم يكن عدلاً مشى روح العدالة في الشباب ضئيلاً

فانظر إلى المعلم وتلاميذه ، فإذا لم يكن من المعلم العدل ، كان من التلاميذ ((روح العدالة)) فهي ليست كاملة تتألف من روح وجسد ، وإنما اعتراها الخلل والنقص ، لاختلال أسباب تعلمها .

ويقسم شوقي الناس إلى صنفين ، يحدثك عن أثرهما في الحياة ، فيقول [2] :

والناس صنفان موتى في حياتهم وآخرون ببطن الأرض أحياء

فكيف يعيش الإنسان ميتاً ؟ وكيف يحي من قُبر في الأرض ؟ عن القضاء بين الموت والحياة ، يدلك على هذا الاختلاف بين طبيعة الشخصين ، فموت الإنسان في حياته لأنه لم يقدم ما ينتفع به أو يذكر ، وأما الحي في باطن الأرض لأنه ترك ميراثاً ينتفع به ، يديم ذكره ، ويخلد اسمه ، ولكن هل سمة

---

[1] الشوقيات – الجزء الأول – ص ١٤٣
[2] السابق – الجزء الثاني – ص ٨

شعر المتنبي كله السهولة ؟ وهل كل شعر شوقي يحمل هذا الطابع أيضاً ؟

إن الناظر في شعر العصر العباسي يجد أن جانباً منه قد غلب عليه الرقة والعذوبة والسهولة نتيجة فعل الحضارة التي أصبح عليها حال الإنسان ، فشتان ما بين حياة البادية والحضر فاختلفت هذه الحياة عما قبلها ، فإذا الشعراء أمام الحدائق الغناء بدلاً من رعونة الصحراء ، وإذا الخيام تتحول إلى قصور تتعجب لها الأبصار ، وتتيه لها العقول ، فاهتزت المشاعر أمامها ، والتف الخيال حولها ، فرقت طباعهم كرقة النسيم في شدة الصيف ، وعذبت كلماتهم وانسابت في سلاسة وانسجام .

وعلى الرغم من هذا فإن شاعر العصر العباسي لم يتخلص دفعة واحدة من تأثير أسلوب القدماء في نفسه ، فقد عاش مرحلة التوتر والقلق بين ما ورث وما يريد أن يستحدث ، ولذلك فإنك ترى القوة والجزالة التي كان عليها الأسلوب القديم موجودة في أشعار العصر العباسي ، مظهراً لحيرة شعرائه ، إلى أن استقر بهم الحال ، وأصبح أسلوبهم على ما وسم به.

ومما لاشك فيه أن الناس يعيشون غير منبتين من قديمهم ، بل إنهم ينزعون دائماً إلى الاتصال بماضيهم ، فإذا حاول شوقي هذا الاتصال لم يكن من حقنا أن نحرمه منه ، ولا أن نشوش عليه ، وإنما الذي من حقنا أن نتساءل عنه ، هل وفق في التعبير عن مشاعره وخواطره وأفكاره ومعانيه ؟

لقد كان شوقي يملك أسرار الشعر العربي ، فهو يحسن أداءه ، ويحسن خلق الجو الشعري الذي يجذب إليه ، تارة

باستخدام العناصر الحاضرة ، وتارة باستخدام العناصر الماضية ، وهو يزاوج بين المجموعتين مزاوجة من شأنها أن تشعر من يقرأونه ، بأنهم يقرأون شعراً عربياً ، فالطريق الفني الموروث لم ينقطع ، والجو الشعري لم يتبدد ، بل لا تزال الدروب متصلة ، والخيوط غير منفصلة .

غير أن الشاعرين اتجها إلى السهولة في الحكمة ، لأنها تُقدم إلى كل القراء ، المثقفين وأنصافهم والعامة ، فلابد أن تصل إليهم من أقرب طريق وأيسر سبيل ، لتكون موضع عبر ينتفع بها ، يرون فيها علاجاً لكل داء ، وتوسع مداركهم ، وتزيد من خبرتهم ووسائل تعاملهم مع الحياة التي يحيون .

المبحث الثاني : المعنى

والمعاني تأتي من كثرة الإطلاع ، ومن التزود من تجارب الآخرين ، وصدق النظر في الحياة ، كما تأتي من نتاج الفكر الخالص ، وليس من الضروري أن تكون الحقائق جديدة مبتكرة ، بل في استطاعة الشاعر الملهم المقتدر أن يخلع من فيض عبقريته على الحقائق القديمة المألوفة التي تتخطاها الأذهان ، ولا تفطن لها لبساطتها ، فيجعلها متألقة قوية تدب فيها الحياة ، لمقدرته وبراعته على انتقاء الألفاظ المعبرة .

وقد استفاد الشعراء من ثقافة عصرهم ، وصاروا يطلبونها متطلعين إليها ، فكانت لهم مدداً لا ينفد ، وطريقاً موصولاً لا ينتهي ، ففتحت عقولهم ، ووسعت آفاقهم ، وصار الشعراء مسرعين في طلبها ، فأصبحت تتساقط على أشعارهم كسماهر المطر في حرارة الصيف ، فلطفت الأشعار ، وغذت الأفكار ، فازدادت المعارف وتنوعت الثقافات بأرجائه على هذه الحياة الجديدة .

وكان لكثرة العطاء أثره في النهوض بالشعر ، حيث أخذ الشعراء ينمقون في أشعارهم ، فيتخيرون لها أعذب الكلمات ، ويغوصون وراء المعاني ، يستنبطون منها كنوزاً فكريـــة رائعة ، حتى بدت أشعارهم في حسن من الإبداع وروعة من التصوير ، وذلك طمعاً في الفوز بالجائزة ، وأصبح بعضهم يتخير المعاني التي تشجع الخلفاء والممدوحين على العطاء ، ويبتكر فيها ويجددها ، ولم يكن التنافس طمعاً في الجائزة فقط ، بل لحفظ مكانتهم الأدبية ، فأكسبوا أشعارهم دور المعاني ،

وأروع الابتكارات ، محفوفة بأعذب الكلمات ، حتى بدت في صورة فنية رائعة .

أ – المعاني عند المتنبي

وإذا كان شعر المتنبي يمتاز –عموماً- بعمق المعنى ، وبعد المأتى ، وإحكام المنهج ، وبراعة الصيغ ، فهو لا يهدهده رنين الموسيقى ، ولا يصرفه سحر أسلوبه ولعب صورة ، وسمو أخيلته عن عمق المعنى ، واتساع الفكرة، وبعد النظر في شئون الحياة ، فإن أبرز المعاني التي أراد الشاعر أن يصورها ، لتستقر في أذهان قارئيه من خلال حكمه ، تبرز ملامحها فيما يلي :

١- المجد والطموح:

ومن كان أشد من المتنبي سعياً إلى المجد ، طامحاً في الجاه والسيادة ، فقد كانت الحياة بالنسبة له وسيلة لتحقيق غايته ، وأمله في المجد والسلطان ، وتبوء المناصب والدرجات العلى ، ولكن كيف يرى المتنبي المجد والسلطان ؟ بما يتحقق عنده ؟

إنه يتحقق بقوة جسمانية ، ومنعة خلقية ، تؤازرهما الثروة والنفوذ ، يقول[١] :

فلا مجد في الدنيا لمن قل ماله ولا مال في الدنيا لمن قل مجده

فالمال والمجد وجهان لعملة واحدة ، فلا مجد دون مال ، ولا مال دون مجد ، وكان المتنبي يسعى لتحقيق تلك المعادلة بالسير في اتجاهين يكمل أحدهما الآخر ، إذا كان لا يترك أميراً

[١] ديوان المتنبي – الجزء الثاني – ط دار الكتب العلمية – بيروت – ص ٢٢٠

إلا تعلق به ومدحه حتى ينال منه ولاية يتحقق بها مجده ، وكان يسعده أن يحصل على المال حين يمدح ، ليحقق مجده الذي يتمنى ويسعى إليه .

ويكمل المتنبي أسباب المجد فيقول[1]

ولا تحسبن المجد زقاً وقينة فما المجد إلا السيف والفتكة البكر

فطريق المجد ليس سهلاً أو مفروشاً بالورد ، فليس المجد في شرب الخمر ، وسماع المغنين ، والتمتع بمباهج الحياة ، وإنما في الإقدام والشجاعة ، وحمل السلاح ، والكر على الأعداء ، عندها يعلو ذكره ، وينال المجد الذي تصبو إليه نفسه .

ولا يجعل المتنبي للطموحات والأماني المشروعة حدوداً يقف عندها المرء ، وهو بذلك يفتح أبواب المجد على مصاريعها ، يقول[2] :

إذا غامرت في شرف مروم فلا تقنع بما دون النجـــوم

فطعم الموت في أمر صغير كطعم الموت في أمر عظيم

فالتضاد بين ((الصغير والعظيم)) قد يحدث اختلافاً في النفس في السعي إليه ، فقد تفتر الهمة للأمر الصغير ، وتقوى وتشتد حتى تنال الأمر العظيم ، لكن المتنبي لا يقنع في سعيه إلى المجد حتى يصل إلى النجوم ، ثم يعمد إلى العقل حتى يقوى

---

[1] السابق – الجزء الثاني – ص ١٤٦

[2] السابق – الجزء الرابع – ص ١٢٠

تلك النزعة ، فيرى أن الموت في كل حال هو الموت ، سواء كان السعي في أمنية صغيرة أو كان الأمر عظيماً .

٢ـ الصراع للوصول إلى الهدف:

وإذا كان المتنبي يسعى إلى الطموح والمجد ، فلابد من صراع حتى يصل إلى هدفه ، فيحدثنا عن صراع الزمان والحياة مع الإنسان ، وهي تحاول أن تكون حجر عثرة بينه وبين ما يتمنى ، فيسيطر عليه الحزن والأسى ، يقول[١] :

صحب الناس قبلنا ذا الزمانا وعناهم في شأنه ما عنانا

وتولوا بغصة كلهم منـ ـه وإن سر بعضهم أحيانا

ربما تحسن الصنع ليالبـ ـه ولكن تكدر الإحسانا

وكأنا لم يرض فينا بريب الـ دهر حتى أعانه من أعانا

ومراد النفوس أصغر من أن نتعادى فيه أن نتفانا

غير أن الفتى يلاقي المنايا كالحات ولا يلاقي الهوانا

ولو أن الحياة تبقى لحي لعددنا أظلنا الشجعانا

وإذا لم يكن من الموت بد فمن العجز أن تكون جبانا

فأنت تسمع في تلك القصيدة همس الزمن ، ودبيب الموت والفناء ، يصارعان الإنسان ، ويحولان بينه وبين ما يتمناه ، فقد جمع المتنبي الكثير من معاني الحكمة عن الزمن

[١] ديوان المتنبي – الجزء الرابع- ص ٢٤٣ - ٢٤٥

والحياة وفلسفة الموت ، ولعل ذلك الحزن الذي شعر به المتنبي في مصر ، وتلك الهزيمة التي مُني منها ، وعدم تحقق أمله وما كانت تصبوا إليه نفسه ، ووقوفه وجهاً لوجه أمام ما لا يرضى ، كل هذا جعل تياراً من الصراع ينمو في نفسه ، صراع بين تيار الضعف وتيار القوة والاقتحام ، وظل هذا ملازماً له إلى أواخر أيامه في مصر .

ونتيجة ما سبق يدعونا المتنبي إلى عدم الاكتراث بالزمن ، ولا بما يأتي به ، يقول[1] :

لا تلق دهرك إلا غير مكترث ما دام يصحب فيه روحك البدن

فما يدوم ما سررت بـــــه ولا يرد عليك الفائت الحـــزن

فلما يأس المتنبي من أن ينال غايته وهدفه لم يعد يعنيه من أمر الدنيا شيء ، ما دام يحيا فيها بروحه وجسده ، وهي نظرة يائس حزين ، استنفذ كل وسائله في صراع الأيام ، ليحقق ما يتمناه فخاب مسعاه .

لقد حول المتنبي تجربته الخاصة إلى تجربة كونية عميقة ، ولخصها في كلمات حكيمة ، تتناقلها الأجيال ، وتشعر بالراحة بعد ترديدها.

٣ـ السخرية من الحياة والناس :

ولما خاب المتنبي في مسعاه ، راحت معانيه تعبر عن سخريته من الحياة التي يحيا ، والناس الذين يعيشون ، يقول [1] :

---

[1] السابق – الجزء الرابع – ص ٢٤٣ - ٢٤٤

ودهر ناسه ناس صـــــغار وإن كانت لهم جثث ضخام

وما أنا منهم بالعيش فيهم ولكن معدن الذهب الزغام

فالدهر مذموم بناسه الصغار الذين يعيشون فيه ، ويتنكر المتنبي لهذا الدهر بناسه ((وما أنا منهم بالعيش فيهم))ولكن كيف لا يكون منهم وهو يعيش منهم ؟ هنا يأتي الدليل يخاطب العقل ((ولكن معدن الذهب الزغام)) أليس الذهب من التراب وجنسه ؟ بلى ، ولكن الذهب أغلى وأنفس .

وتزداد النظرة التشاؤمية إلى الناس الذين يعيشون معه ، فتراه يقول[٢] :

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعله لا يظلم

فالمتنبي يرى الظلم من شيم الإنسان وطبعه ، فإذا رأيت عفيفاً لا يظلم الناس ، فاعلم أنه ليس فريداً في بابه ولا في أخلاقه ، فلعله ترك الظلم لسبب لا يعلمه غيره .

ب – المعنى عند شوقي :

تأثر شعراء العصر الحديث في معانيهم بما اطلعوا عليه من الأدب القديم ، وبما قرأوا كذلك من آداب الغرب ، ومن معاني الحكمة عند شوقي :

---

[١] ديوان المتنبي – الجزء الرابع – ص ٧١
[٢٢] السابق – الجزء الرابع – ص ١٢٧

١ ـ العلم والأخلاق أساس بناء الأمم :

وإذا أنعمت النظر إلى هدف شوقي من وراء خطه لهذه الحكم وإذاعتها عبر أهم وسائل الإذاعة وهو الشعر ، فإنك تراه قد أراد أن يستثير حمية شباب المسلمين وحماسهم ، ويوقظ حسهم وغيرتهم ، ويحيل أحوالهم ويبدلهم عن طبيعة الدغة والسكون إلى حالة جيدة يراهم بها جديرون ، ويلفت نظرهم ويذكرهم من خلال شعره بأهم أركان بناء الدول القوية ، وهو العلم والأخلاق ، فهما سلاحان لمن أراد الدخول في معركة إقامة مجد الوطن ، يقول[١]:

فالسيف يهدم فجراً ما بنى سحرا وكل بنيان علم غير منهدم

فانظر إلى قوله ((فجراً وسحرا)) فالعلاقة الزمانية بينهما القرب الشديد ، فكأن بناء الأمم الذي لا يقوم على العلم لا يبقى طويلاً أمام الضربات والنوازل التي تحيق به ((فالسيف يهدم فجراً ما بنى سحرا)) وأما بناء العلم فغير منهدم ، له الدوام والثبوت والاستمرار ، على الرغم من محاولة الهدم ، وتوجيه أدوات النقض إليه .

وفي سبيل دعوه الأمم إلى بناء ركنها على أساس العلم ، نراه يوضح صورة البناء على جهل ، لينفروا منها ، فيقول[٢] :

إني نظرت إلى الشعوب فلم أجد كالجهل داءً للشعوب مبيداً

الجهل لا يبلد الحياة موات ـــــه إلا كما تلد الرمام الـدودا

---

[١] الشوقيات – الجزء الأول – ص ١٧٣

[٢] السابق – الجزء الأول – ص ٩٢

فالجهل موت ، فكيف يلد الموت الحياة ؟

إن الشاعر يخاطب العقل بالدليل بقوله ((إلا كما تلد الرمام الدودا)) فالجيفة لا ينشأ عنها إلا الدود ، أليست تلك صورة منفرة لمن يبنى على جهل ؟ أليست دعوة للابتعاد عنها قدر الطاقة؟

ويؤكد شوقي تلك الحقيقة بألفاظ أخرى يقول[1] :

وليس بعامر بنيان قوم إذا أخلاقهم كانت خرابا

فالتضادين ((عامر وخراب)) يوحي باختلاف مصير الأوطان والأمم في سعيها إلى إقامة نهضتها وبناء مجدها ، فعمارة أمجاد الأوطان لا تقوم إذا كانت الأخلاق ((خرابا)) ولعل خرابها يعني فسادها ، فكيف يتحقق لها متانة الأساس وقوة البنيان ؟

٢ـ المجد والطموح

ويؤكد شوقي على أن طريق المجد الذي تبقيه الأوطان ، ضماناً لخلود ذكرها ، ليس سهلاً ، وأن عليهم إزاحة العقبات التي تعترضه ، وما أكبرها من عقبات ، يقول :

لا تحسبن المجد تمراً أنت آكله لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

فنفي البلوغ ((لن تبلغ)) إلا ((بلعوق الصبر)) فيه دعوة من شوقي إلى تحمل المشاق ، وهي إشارة من البداية إلى ما

[1] الشوقيات – الجزء الأول – ص ٦٣ ـ ٦٥

سوف يلاقون ، فإن كانت منهم العزيمة ساروا الطريق ، وإن لم يكن حادوا وقعدوا .

وفي سبيل دعوته إلى رفقة الأوطان ، يدعو أهلها إلى التحلي بالفضائل ، والتخلي عن الرذائل ، يقول[1] :

ولم أر مثل جمـــع المال داء ولا مثل البخيل به مصابا

فلا تقتلك شهوته وزنهـــا كما تزن الطعام أو الشرابا

إلى أن يقول :

وأن البر خير في حيـــاة وأبقى بعد صاحبه ثوابـــا

وأن الشر يصدع فاعليـــه ولم أر خيراً بالشرآبـــــا

فجمع المال ((داء)) قد يسبب ألماً عضوياً أو مرضاً نفسياً ، فإذا أصاب عضواً بالجسم ، فالضعف ، وإذا أصاب نفساً فألم الروح ، وذلك إذا كان جمع المال بخلاً به على الآخرين ، وتركز للثروة في يد طائفة على حساب الآخرين ، وإذا كان الشاعر يدعو لخلع تلك الصفات المذمومة ، فإنه يدعو إلى التحلي بأضادها من الصفات التي يراها جديرة بتحقيق السعادة للمجتمع .

[1] الشوقيات – الجزء الأول – ص ٦٤ - ٦٥

٣- الصبر على ملمات الحياة

وإذا كان الشاعر يرى حب وطنه مقيماً في قلبه ، فقد أحبه حتى منتهى الحب ، وعشقه حتى منتهى العشق ، ومن ثم فهما وحدة واحدة ، يتألم لألم وطنه ، ويفرح لفرحه ، يقول[١] :

صبراً على الدهر إن جلت إن المصائب مما توقظ الأمم

فالأسلوب الإنشائي ((صبراً)) غرضه الحث على الفعل ، بألا يصاب المرء بالضجر والتأفف ، فيفر من ميدان المعركة أمام نوازل الدهر ((فالمصائب توقظ الأمم)) أسلوب خبري غرضه التقرير ، فتنوع الأساليب تنبيه من الشاعر لأهل وطنه بوجوب تنوع أساليب مقاومة الدهر ومصائبه ، حتى يتحقق لك النصر في النهاية.

وإذا كان هذا مصاب أهل الوطن ، وصبرها حتى تنجلي الغمة ، فإن صبر شوقي لا يختلف عنه ، فكيف يدعو أهل الأوطان إلى الصبر ولا يصبر ، يقول :

وصابر تلهج الدنيا بنكبته تخاله من جميل الصبر ما نكبا

فأن ((تلهج الدنيا بنكبته)) فكم يكون حجم ما تبلى به المرء من نكبات ؟ ولكن على المرء أن يقابلها بما قال الشاعر ((تخاله من جميل الصبر ما نكبا)) فلابد أن صبره سيخرجه من محنته ويذهب عنه ما يجد من آلام وأحزان .

---

[١] السابق – الجزء الأول – ص ٢٥٨

إن تلك النتيجة التي انتهى إليها الشاعر ويقينه بها ، جاء من واقع قراءته لأحداث التاريخ ، واستخلاص عبره ، والتأسي بما وقع لغيره ، يقول[1] :

وإذا فاتك التفات إلى الما ضي فقد غاب عنك وجه التأسي

فدعوته إلى الالتفات لقراءة أحداث التاريخ ، واستخلاص النتائج التي انتهت إليها علاقة الإنسان بالزمان ، هي دعوة للإنسان لأن يقتدي بمن وقع لهم مثل ذلك ، ثم توجيهه إلى السلاح الذي ينبغي به أن يواجه دون عناء ، أو بحث عن وسيلة للمقاومة ، إنها الإفادة مما وقع لغيره ، بالنظر في أحوالهم ، واستخلاص ثمرة عملهم دون عناء أو مشقة .

[1] السابق – الجزء الثاني – ص ٥١

المبحث الثالث : الصورة الفنية :

((والصورة الشعرية عنصر من أهم عناصر الإبداع الشعري ، عرفها الشعراء وأبدعوها في كل المراحل من تاريخ الشعر العربي قديمه وحديثه ، وقد غالى بعض النقاد في عصرنا الحديث في الاحتفاء بالصورة الشعرية وأهميتها في القصيدة ، وقرر بعضهم في حسم أن الشعر الذي يخلو من الصورة مجرد ((نظم لا يرقى إلى الشعر ، على الرغم من أن الجمال الفني في القصيدة لا يقتصر على عنصر واحد ، فهناك عناصر كثيرة تسهم في هذا المجال منها التأمل الفكري ، والخيال ، والظلال ، والسياق الفني ، ثم أخيراً موهبة الشاعر الذي يبدع القصيدة ورؤيته الفنية والفكرية ، وقاموسه اللغوي ، وطريقة تعبيره واستخدامه لمفردات اللغة ، كل هذه العناصر وغيرها هي التي تسهم في جمال القصيدة ، هناك قصائد كثيرة خلت من الصورة الشعرية ، ولكنها لم تخل من الجمال الفني بفضل بقية هذه العناصر))[1] .

وإذا كان شوقي أحد شعراء مدرسة البعث التي هاجمها النقاد خطأ ، لخلو شعرها – في زعمهم – من الصورة الفنية ، أو أن ما فيه من صور لا يرقى إلى طبيعة التصوير الفني والجمالي ، لأنها صور حسية تعبر عن المجردات ، فإننا نقرر خلاف ما جاء عليه النقاد .

---

[1] مدرسة البعث وأثرها في الشعر الحديث – د. عبدالعزيز الدسوقي – ط هيئة قصور الثقافة – اكتوبر – ١٩٩٦م – ص ٢٢٥ - ٢٢٦

فإذا كان ميل الإنسان إلى التصوير فطري وغريزة مركبة فيه ، فهو بطبيعته شفوف بأن ينقل إلى غيره ما عساه أن يكون قد سبقه إليه من مشاهد أو لوحات من الطبيعة ، فإنه لم يجد إلى ذلك وسيلة سوى بضاعته الأولى وهي الشعر ، يرسم فيه صوراً دقيقة لكل ما وقع تحت سمعه وبصره من مناظر وتجارب .

انظر إلى المتنبي يقول[1] :

فإن تفق الأنام وأنت منهم فإن المسك بعض دم الغزال

فإذا كان الممدوح من الأنام ، فكيف يتفوق عليهم وهو من جنسهم ؟ إنه يعمد إلى التشبيه بالمسك ، فإنه نوع من أنواع الدماء ، ولكنه يختلف عنها بالرغم أنه من جنسها ، ولكن بما يميز من صفات وسمات يتحلى بها تفوق عليهم وارتفع فوقهم .

وللشاعرين أغراض من وراء عروجها على علم المعاني ، لاستخدام الأساليب الإنشائية والخبرية والمزاوجة بينهما .

فهذا المتنبي يدعونا إلى الحذر في تعاملنا مع الناس ، على ألا نظهر لهم ذلك ، وألا نغتر منهم بابتسامة ، فربما وراءها الغدر والخيانة ، يقول[2] :

وكن على حذر للناس تستره ولا يغرنك منهم ثغر مبتسم

---

[1] ديوان المتنبي – الجزء الثالث – ص ٢٢

[2] ديوان المتنبي – الجزء الرابع – ص ١٦٤

فالأسلوب الإنشائي في الشطر الأول بالأمر وفي الثاني، بالنهي ، غرضه النصح والإرشاد ، وإن كانت تلك رؤية لا تصلح للكل ، فليس الكل يتربص بك السوء ، ويضمر لك الشر ، أو أنهم منافقون يظهرون خلاف ما يبطنون.

وبقول شوقي عن سياسة المستعمر مع الدول[1] :

أحرام على بـــــلابلة الدو ج حلال للطير من كل جنس ؟

فالأسلوب الإنشائي (أحرام) بالاستفهام وما بينه وبين حلال من تضاد ، يدعو إلى الدهشة من تلك السياسة الغاشمة التي يبيح بها المعتدي كل شيء حلالاً ، بينما يحرم على أهل الأوطان أن يتمتعوا بأوطانهم ، وأن ينعموا بها في لغة مشتركة تعتمد على الحب ، وبذل كل منهما للآخر نفسه ، ينتفع بها وينعم .

ويقول المتنبي موازناً بين من يعمل عقله وفكره وما يجره عليه من تعب ، وهذا الجاهل الذي لا ينتفع بعقله [2] :

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

فالغرض من الأسلوب الخبرة هو البيان والتقرير من واقع الشاعر وما استقاه من ملاحظاته ورؤيته لواقع نفسه وواقع غيره ، وربما قصد الشاعر نفسه بهذا البيت ، فقد جرّ عليه ، عقله الشقاء والتعب ، إلا أنه لم يجعل البيت خاصاً به ، قاصراً

---

[1] الشوقيات – الجزء الثاني – ص ٤٥

[2] ديوان المتنبي – الجزء الرابع – ص ١٢٥

تجربته على نفسه ، فصاغها حكمة ، وجعل من تجربته تجربة للناس جميعاً .

وقريب من هذا قول شوقي[1] :

ومن صحب الحياة بغير عقل تورط في حوادثها اندفاعاً

فالشاعران يعظمان من قيمة العقل ، ويدعوان إلى إعماله في كل الأمور ، حتى يكون الإنسان آمناً في رحلته مع الحياة .

على أن هــذا لا يعني استقلال كل لون من الخبر والإنشاء ، فيعمد المتنبي إلى المزاوجة بينهما ، تجديداً لنشاط المتلقي وتحريكاً لذهنه ، فالاختلاف يؤدي إلى كسر الرتابة من التكرار، يقول المتنبي في مدح سيف الدولة[2] :

ترفق أيها المولى عليهم فإن الرفق بالجاني عتاب

فالشطر الأول إنشائي بالأمر غرضه الحث على اتخاذ الرأفة والشفقة فيمن أخطأ في حقك ، فهذا الأسلوب قد يكون أشد أنواع العقاب الذي يؤدي إلى الإقلاع بعد معرفة الجرم ، وهو ما عبر عنه الأسلوب الخبري الذي قرر تلك الحقيقة من أخلاق الناس ، حين تتأثر مشاعرهم بصورة أكبر حين تعمد إلى عدم إيذائهم بما فعلوه .

---

[1] الشوقيات – الجزء الأول – ص ١٨٥

[2] ديوان المتنبي – الجزء الأول – ص ٩٢

ويقول شوقي عن استخدامه بحر الرجز لقصائده ، ورأي الناس أنه استخدم من يعجز[1] :

وقيمة اللؤلؤ في النحور بنفسه وليس بالبحور

فاللؤلؤ يستخرج من البحور ، ويختلف في درجاته وجودته تبعاً للمكان الذي يستخرج منه ، ولذلك فالبحر في آخر البيت قد يكون البحر الذي يستخرج منه اللؤلؤ ، وهو المعنى القريب الذي يتبادر إلى الذهن ، وذلك أحد معنى التودية ، وأما المعنى الآخر البعيد ، فهو بحر الشعر ، لأن المقصود باللؤلؤ هو كلامه الذي يشبهه قيمة وجمالاً .

وقد يعيب البعض على شوقي في صوره أنه ما زال يستخدم القديم منها ، فيشبه بالبلابل أو الأسد أو اللؤلؤ وغيرها من الصور التي لا تعبر عن واقعة ، فهناك – في رأيهم – مشبهات به تتواءم مع عصره تلك التي عمد إليها.

لكننا نقول : إن صور شوقي تلك التي يعيبها عليه البعض ، تظهر حيرته بين أمرين يتنازعانه ، بين رؤيته لأثر ماضي أسلافه من الشعراء ، الذين – لا شك – عملوا على تأسيس شاعريته ، وبين رؤيته لواقعه في تعبيره عنه ، وبيان أثره في نفسه .

ونحن لا ننكر أن كثيراً من صوره الشعرية قد استمدها من القديم ، لكن هذا لا يغض من شأنه ، فذلك شأن شعراء العرب البارعين جميعاً ، ومثل شوقي في هذا مثل من ورث

[1] ديوان العرب وعظماء الاسلام – ص ٦

ثروة واحتفظ بها ، بل ونماها ، وأضاف إليها تحليقات في سماواته ، وليس من حق ناقد أن يطلب من شاعرنا الانفصال في صوره عن أسلافه ، لأنه يصبح كالمنبت ، والفن لا يعرف الثورة النهائية على الماضي والانفصال الحاد عنه ، هو يعرف الابتكار والتجديد ، ولكن ذلك لا يعني الخروج المطلق على الماضي ، بل لا يزال يتصل به .

وما الصورة القديمة في حقيقتها إلا رواسب الشعر وملونات لوحاته ، ولا يعاب الشاعر باستخدام هذه الملونات إلا إذا نقل طبق الأصل ، أو كان في شعره ما يؤذي أذواقنا ، ولم يكن شوقي من هؤلاء ، بل كان دائماً يضيف طريقته في تلوين الصورة ، فتبدو كأنما تغيرت وجوهها واختلفت هيئاتها.

المبحث الرابع : الموسيقى الشعرية

والموسيقى الشعرية عنصر مهم من العناصر التي يعتمد عليها الشعراء في نسج قصائدهم وقد اهتم النقد الأدبي بالموسيقى قديماً وحديثاً ، وليس أدل على ذلك من أن كل الدعوات التي تأخذ الدعوى طريق الخروج على الأوزان النمطية الخليلية ، وقد تسير في سبيل تنوعه وتعدده ، ولكن هذه الدعوات في النهاية تلتقي حول حتمية توافر هذا العنصر الموسيقي في العملية الشعرية .

لذلك نرى المتنبي وشوقي لم يخرجا في أوزانهما عن دائرة الأوزان العربية المألوفة ، بل توقفنا عند البحور التقليدية للقصيدة العربية ، فعزفا على الأوتار نفسها التي عزف عليها الشعراء قبلهما ، فإذا تصفحنا ديوان المتنبي ، وجدناه يقول بعد أن بلغه أن قوماً تحدثوا بوفاته في مجلس سيف الدولة بحلب والمتنبي في مصر[1] :

بم التعلل لا أهل ولا وطن ولا نديم ولا كأس ولا سكن

وإذا نظرنا إلى البحر الذي جاءت عليه القصيدة ، نرى الشاعر قد سبك أبياتها في بوتقة بحر البسيط ، وهو من البحور الطويلة التفعيلات ، يتلاءم وسرعة التنفس وازدياد النبضات القلبية ، فهل قال المتنبي شعره بعد أن هدأت نفسه وزال عنها حزنها مما قيل في حقه من افتراءات وأكاذيب ؟

[1] ديوان المتنبي – الجزء الرابع – ص ٢٣٦

يبدو أن الشاعر قال شعره بعد أن هدأت نفسه ، حتى يستطيع أن يفحم متهميه ، ويرد كيدهم ، فيعد العدة لإسكاتهم ، ويرخص عنه نفسه ما قيل في حقه ، فلا يعودون إلى القيل والقال ابدا، ومن ثم كان هذا الاحتشاد في الألفاظ الذي يدل على أسباب حزن الشاعر في غربته ، وألمه نتيجة عدم تحقق أمله .

ولو نظرنا إلى المتنبي وهو يتعجب مما يحدث للإنسان من الزمن والحياة التي يعيش يقول[1] :

ولو أن الحياة تبقى لحي لعددنا أضلنا الشجعانا

والشاعر في نظمه لهذه الحكمة الساخرة قد كساها ثوب بحر الخفيف ، ومعروف أن هذا البحر ذو نغمة حلوة ، عمد إليها الشاعر ، ليجذب إليه عقل سامعه ، ليعي بقلبه ما يرمي إليه من وراء كلماته ، فيقبل على النصيحة مأخوذاً بموسيقاها الجميلة ، متأثراً بنغمتها الرقيقة الخلابة ، فيعمل بها ويعي معانيها .

ومن حكم المتنبي التي تدل على خير الإنفاق ، وأهميته خلوص الجود من المن يقول[2] :

إذا الجود لم يرزق خلاصاً من الأذى فلا الحمد مكسوبا ولا المال باقياً

فلو نظرنا إلى البحر الذي عقد فيه الشاعر أبياته في تلك القصيدة ، وجدنا أنها جاءت على بحر الطويل ، ذلك أن الشاعر حين يصف فإنه لا ينفعل ولا يضطرب ، وإنما يعبر عن حالته

---

[1] السابق – الجزء الرابع – ص ٢٤٤
[2] السابق - الجزء الرابع – ص ٢٢٨

التي يحس بها ، فلا ثورة بداخله ، أو اضطراب بين جوانحه ، ولذلك جاء بالبحر الذي تتناسب طول فقراته مع حالة الشاعر الذي يبحث عما يبين به حالته ، ويكشف به عن دخيلته.

وقد أراد الشاعر من وراء النظم على هذا البحر أن يزين الصورة بموسيقى الشعر ، فهي بمنزلة الإطار الجميل من الصورة ، إنه يزينها حقاً ، ولكنه لا يشغل الناظر عن حسنها شيئاً ، فالشاعر لم يغفل ناحية الموسيقى في شعره ، غير أنها مع قوتها أراء لها الانزواء وراء كلامه ، حتى يلفت النظر إلى ما يقول من نصائح ، فكأنه عمد إلى هذا البحر ، خوفاً من أن تظهر الموسيقى وتطغى على حكمه ، فبحر الطويل ((هو البحر المعتدل حقاً ، ونغمة من اللطف بحيث يخلص إليك وأنت لا تكاد تشعر به ، وتجد دندنته مع الكلام المصنوع فيه بمنزلة الإطار الجميل من الصورة يزينها ولا يشغل الناظر عن حسنها شيئاً ، والطويل في هذه الناحية يخالف سائر بحور الشعر[1]))

وإذا عرجنا على موسيقى شوقي ، نراه يقول عن دولة بني أمية ، وكيف تحقق لها الوجود بفضل السيف والقوة[2] :

علمت أن السيف بناء الدول ... وركنها في الآخرين والأول

ما زال في الممالك الأساسا ... به بناها من نبي وساسا

يقصر حبل الملك أو يمده ... ما رسم الحدود إلا حده

لم يبن للفرس ولا الرومان ... حائط مليكها سوى اليماني

---

[1] المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها – د. عبدالله الطيب المجدوب – ط دار الفكر- الجزء الأول – ص ٣٩٢

[2] ديوان العرب وعظماء الإسلام – ص ٧٣

ولو بحثنا عن البحر الذي جاءت عليه القصيدة ، نجده عمد إلى بحر الرجز ، ليصب فيه أشجانه وأحزابه ، ويخرج لوعاته ، فالنفس غائمة والقلب حزين لما آل إليه حال وطنه والأوطان العربية مقارنة بأسلافهم السابقين .

كما أن بحر الرجز يصلح ما نظم عليه للغناء ، فلو قرأت الأبيات وجدتها أغنية ينبغي بها كل مسلم في معركة إقامة دولته على أساس قوى متين ، فهي تحمس الروح وتوقظ الشعور ، وتؤجج النخوة ، لبثور الضمير الإسلامي كالطوفان فيغرق في مائه هؤلاء المحتلين ، فيظهر المجتمع من براثن أنيابهم .

المصادر والمراجع

١- أحمد شوقي / د. زكي مبارك / ط الهيئة العامة للكتاب / ١٩٧٧م
٢- الأدب العربي المعاصر في مصر / د. شوقي ضيف/ ط دار المعارف / ط ١١
٣- الأغاني للأصفهاني/ تحقيق عبدالسلام هارون /ط دار الكتب المصرية/ج ١٥/١٣٧٩هـ-١٩٧٧م
٤- أمالي المرتضى/تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم/ ط دار إحياء الكتب العربية/ج الأول/ ١٣٧٣هـ - ١٩٥٤م
٥- ديوان إمرئ القيس/تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم/ ط دار المعارف/ ط٣/١٣٧٧هـ-١٩٥٨م.
٦- ديوان البارودي/تحقيق على الجارم ومحمد شفيق معروف/الجزء الثاني/ ط دار الكتب المصرية / ١٩٤٢م
٧- ديوان الشريف الرضي/ شرح د.يوسف شكري/ ط دار الجيل بيروت / الجزء الثاني/١٩٩٥م.
٨- ديوان العرب وعظماء الإسلام/ أحمد شوقي/ط المكتبة التجارية بمصر/١٩٧٠م
٩- ديوان المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري/طبعة د. كمال طالب/ ط دار الكتب العلمية – بيروت / ١٩٧٧م .
١٠- ذكرى أبي الطيب المتنبي بعد ألف عام/ عبدالوهاب عزام/ ط مطبعة الجزيرة بغداد/ ١٣٣٥هـ-١٩٣٦م .
١١- الشعر والشعراء / تحقيق أحمد محمد شاكر/ ط دار المعارف / ط ٣ / الجزء الأول / ١٩٧٧م.
١٢- الشوقيات/ أحمد شوقي/ ط دار الكتب العلمية – بيروت

١٣- شوقي شاعر العصر الحديث / د.شوقي ضيف / ط دار المعارف/ ط ١٣/ ١٩٨٨م
١٤- الصبح المنبئ عن حيثية المتنبي/ تحقيق مصطفى السقا ومحمد شتا وعبده زيادة
١٥- الفن ومذاهبه في الشعر العربي/ د. شوقي ضيف / ط دار المعارف / ط ١٢
١٦- لماذا يشقى الإنسان ؟ / علي أدهم / ط مكتبة نهضة مصر بالفجالة
١٧- المتنبي بين ناقديه في القديم والحديث/ د. محمد عبدالرحمن شعيب/ط دار المعارف/ط٢/ ١٩٦٤م.
١٨- مدرسة البعث وأثرها في الشعر الحديث/ د. عبدالعزيز الدسوقي/ ط هيئة قصور الثقافة / أكتوبر ١٩٩٦م
١٩- المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها/ د.عبدالله الطيب المجدوب / ط. دار الفكر/ الجزء الأول.
٢٠- الوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي الجرجاني/تحقيق هاشم الشاذلي/ ط دار إحياء الكتب العربية .
٢١- وفيات الأعيان لابن خلكان / ط مكتبة عيسى الحلبي.